527

٥٢٧

عبير

HARLEQUIN

د. النحاس

شرك الظلام

هيلين بروكس

liilas.com
www.liilas.com/vb3
hebawebas

شرك الظلام

liilas.com

هيلين بروكس

لقد ارادت جاني غوردون الانتقام، ولكن الأمر بالنسبة إلى غريمها كين ستيل، كان اكثر من مجرد لفت نظر. لقد سقطت جاني في شرك العنكبوت الذي كلما جاهدت للإفلات منه، زاد تخبطها فيه. اما متى ينقض عليها تلك العنكبوت، وهو كين، ليحطمها بنفس الطريقة التي حطم بها والدها، فلم يكن سوى مسألة وقت.

www.liilas.com/vb3

hebawebas

liilas.com

«انك مجرم يا سيد ستيل.»

ولم تستمع لهمهمة الاستهجان التي شملت انحاء الغرفة فقد كانت عمياء صماء عن كل شيء ما عدا هذا الوجه الصخري القاسي امامها.

«لقد لاحقت ابي لأجل عدة آلاف من الجنيهات حتى فقدت كل شيء، بما في ذلك الرغبة في الحياة. ما هو كنه شعورك عندما يتحمل ضميرك تبعة موت انسان، يا سيد ستيل؟ أم انك لم تفكر في ذلك قط؟»

www.liilas.com/vb3

hebawebas

الفصل الأول

«جو؟ من يكون ذلك الرجل هناك الذي دخل منذ لحظة مع تلك المرأة الشقراء؟»

فاستدار جو ينظر إلى حيث كانت تشير لتقع انظاره على مجموعة من الناس تحيط برجل فارع الطول متين البنية يقف في ردهة الفندق، وقد تعلقت بذراعه شابة رشيقة شقراء ارتسمت على شفتيها ابتسامة ملتوية.

وقال: «آه، انه كين ستيل، يا حبيبتي، ألا تعرفين رجل الأعمال الكبير ذاك الذي يملك نصف لندن؟ أظنه هنا يقيم مؤتمراً صحفياً، كما ترين من كل هؤلاء الصحافيين المنتشرين في كافة الأنحاء هنا. انه قد نجح لتوه في أن يضم إليه احدى اكبر الشركات مما أثار نهم الصحف إلى الاطلاع على التفاصيل. على كل حال، هل نعود إلى التركيز على العمل الذي بين أيدينا؟»

وبينما عاد جو باهتمامه إلى المواد الاعلانية المنتشرة على الطاولة المنخفضة التي كانا جالسين إليها يتناولان القهوة، استمرت جاني في التحديق من خلال الزجاج الذي يفصل الردهة عن القاعة التي كانا يتناولان فيها القهوة. لقد سبق وعرفته إذ سبق ورأت صورته مرة حين كانت تبحث في حاجيات أبيها بعد وفاته بأسبوع. ولكنها كانت تحتفظ بصورة تلك الملامح القاسية الخشنة في أعماق ذاكرتها التي كانت تشتعل بالكراهية.

www.lilas.com/vb3

والآن، ها هوذا هنا بلحمه ودمه. فما الذي عليها أن تقوم به الآن؟

نعم، ماذا؟ ولم تستطع أن تحول انظارها عن ذلك الجسم الضخم والذي كان يدخل المصعد الآن، متوارياً عن الأنظار خلف بابه. لقد سبق وأقسمت أمام جثمان أبيها أنها ستذيق الرأس الأكبر لمؤسسة ستيل، ما يستحقه حالما يقع نظرها عليه.

ولكنها لم تتوقع ان اجتماعها به سيكون في أحد افخم فنادق لندن الخاصة، حيث كان يعقد مؤتمراً صحفياً.

وتساءلت تحدث نفسها بصمت، ومع ذلك، ما الذي ساخسره؟ ربما ستخسر وظيفتها وشقتها الصغيرة التي توفرها لها هذه الوظيفة، وكذلك اغلب اصدقائها.

حتى جو فلاندرز لن يعجبه هذا العمل. كلا ولا أي شخص له علاقة بمؤسسة ستيل، وليس برئيسها فقط. هذا ما عداها هي. ومنحها هذا التفكير قوة حديدية كما أشعل النار في عينيها. إنها لن تستطيع الرقاد في الليل بعد ذلك إذا هي لم تفعل شيئاً مما قد صممت عليه. فهو فرض عليها نحو أبيها ذلك الرجل الوضيع الطيب الذي كان سبب وجودها.

ونبهتها من شرودها ذاك، لمسة من جو على ذراعها، مجفلة اليه، بينما كان هو يقول: «جاني... ما بك؟ هل انت مريضة؟»

فأجابت وهي تنهض واقفة: «إنني آسفة يا جو، إن علي أن أقوم بعمل [illegible]

فقال: «إننا سنجتمع مع المدير في الساعة الخامسة في

www.liilas.com/vb3

مكتبه.» ونظر في ساعته بقلق وهو يتابع: «ومازلت اريد أن نتحدث، بشكل أوسع، عن هذه الصور. هيا اسرعي. ان مكان استراحة السيدات إلى اليمين.»

فقالت: «هذا حسن.» وعندما اجتازت الردهة تقدمت من مكتب الاستعلامات وهي تقول بجد: «علمت أن السيد ستيل يعقد هنا مؤتمراً صحافياً، وقد تأخرت، فهل لك أن ترشديني إلى مكانه من فضلك؟»

فقالت الموظفة بضجر: «إنه في الطابق الثالث. أما غرفة المؤتمر فهي إلى يمين المصعد.»

فشكرتها جاني وقد ابتدأ قلبها يخفق. ولكنها كانت قد صعدت إلى الطابق الثالث قبل ان تشعر بالرجفة في ساقيها بشكل واضح. وتناهت الضجة إلى مسامعها قبل أن تفتح الباب وتدخل إلى غرفة واسعة يكسو أرضها السجاد. وعلى الفور، اتجهت عيناها نحو مجموعة صغيرة من الرجال يجلسون في الطرف الأقصى من الغرفة تلك، خلف مكتب من خشب الجوز بالغ الفخامة قد ارتفع فوق منصة صغيرة.»

وكانت طريقها إلى المنصة وسط أضواء آلات التصوير عندما تناهى إلى مسامعها صوت ارتفع من بين ذلك الحشد من الصحافيين يقول: «كم يبلغ مقدار التعامل التجاري يا سيد ستيل؟»

وضاع صوته في اذنيها وهي تجتاز المسافة القصيرة إلى المنصة. وكان الناظر يرى شابة صغيرة ذات قوام يميل قليلاً إلى [illegible] بشكل القلب متوسط الجمال، وكان شعرها وعيناها اجمل ما فيها.

ولدى رؤية ستيل لها، وهي تقف امامه بعينين متألقتين في وجه شاحب تنطق ملامحه بالعداء المر، تجمدت الكلمات، في جوابه عن ذلك السؤال، على شفتيه، وضاقت عيناه الزرقاوان عن نظرة باردة كالثلج.

«السيد ستيل؟ السيد كين ستيل؟» واخترقت كلماتها هذه، واضحة جلية، ذلك السكون الذي كان بقية انحاء الغرفة حيث كان الصحافيون متربصين لأي شيء غير متوقع.

وأجاب هو وعيناه تقعان على وجهها بنظرة صاعقة: «نعم، وأنا آسف فأنا لا أعرفك.»

وتقدم واحد من الحرس إلى الأمام، وساد السكون الغرفة الفسيحة، بينما مد الصحافيون اعناقهم وقد جهزوا اوراقهم.

وأجابته في بمرارة: «ليس تماماً، ولكنني أنا اعرفك، يا سيد ستيل. ان لدي سبباً مهماً يجعلني أعرفك.» وبدا عليها انها تبذل غاية الجهد في النطق بهذه الكلمات.

فقال بلهجة باردة كالثلج، وهو يستدير من حول المكتب نازلاً من على المنصة إلى الأرض فيقف بجانبها وهو يشير إلى الآخرين الجالسين حول المكتب، بأن يبقوا في أماكنهم: «هل لك ان توضحي كلامك؟»

فحدقت فيه ثائرة وقد التهبت وجنتاها وهي تجيبه قائلة: «نعم، سأفعل. ان اسمي هو جاني غوردن. هل يذكرك هذا الاسم بشيء؟»

فأجاب ببرود: «ليس من عادتي العودة إلى الذكريات يا آنسة غوردن. كما انه لم يعجبني تطرقك إلى حديث خاص عني وسط هذه المشاغل. فاذا كان لديك ما تقولينه، فتابعي

كلامك، والا فاخرجي من هنا.» وكان التحدي واضحاً عليه وهو يقول ذلك.

وذهلت لحظة، للغطرسة البالغة في قوله ذاك، ثم ما لبثت الثورة التي سبق وتملكتها منذ سنتين، أن عادت إليها الآن بكل وحشيتها.

وقالت: «إنك مجرم، يا سيد ستيل.»

ولم تهتم لهمهمات الاستهجان التي شملت أنحاء الغرفة، فقد كانت عمياء صماء عن أي شيء ما عدا هذا الوجه الصخري امامها. وتابعت تقول: «انك وحش حقير، لقد لاحقت أبي لأجل عدة آلاف من الجنيهات هي قطرة في محيطك، إلى أن جعلته يفقد كل شيء، بما في ذلك الرغبة في الحياة. ما هو كنه شعورك عندما تحمل ضميرك تبعة موت انسان، يا سيد ستيل، أم انك لم تفكر في هذا قط؟» وكان توهج وجنتيها يكشف الشحوب البالغ الذي كان يكسو بقية ملامحها مما لم يدع لدى الناظرين اقل شك في انها كانت تعني كل كلمة نطقت بها.

وبدا في ملامحه غضب عنيف وهو يقول بصوت منخفض تنبىء لهجته بشر مستطير: «لقد خرجت تماماً عن حدودك، يا آنسة غوردون. فأنا لم يسبق ان سمعت قط باسم ابيك...»

ودفعها شعور خفي مبهم إلى أن تشعر برهبة الموقف، ولكن، من الغريب انها لم تشعر بغير الغضب والألم والارتياح، الارتياح للتنفيس، أخيراً، عن كل ما كان يثقل نفسها طوال تلك المدة. وقالت: «ذلك لأنه اطلق على شركته اسم «جيسدون لابيللي» وهو اسم أمي «جيسيكا غوردون.»

www.liilas.com/vb3

ولمحت لمعة خاطفة من الادراك تعبر عينيه الزرقاوين، لترفع كفها، في اللحظة التالية، في صفعة مدوية على وجهه جعلت رأسه يرتد إلى الخلف.

وكأنما أفلتت الثورة من عقاله، فتصاعدت صيحات الصحافيين خلفها وأصوات آلات التصوير.

واندفعت جاني، مغتنمة الفوضى التي حدثت، تشق طريقها بعنف خارجة نحو المصعد لتقتحمه في نفس الوقت الذي ابتدأت أبوابه تقفل. وعندما اصبحت في داخله، انتبهت إلى الجلبة التي أحدثها اندفاع الرجال إلى الممر، تتلاشى الأصوات بهبوط المصعد بها إلى الطابق الأسفل.

وعندما اصبحت في الردهة اندفعت خارجة من المبنى دون ان تنظر يمنة أو يسرة، متجهة بنظراتها إلى الامام وقد اختطف لونها الشحوب.

كانت تحث السير وهي تردد، بذهن زائغ ورأس تملكه الدوار: «لقد نال ما يستحق، انه كان اقل من أن يعتبر انساناً. حتى ولا حيواناً، وهي غير نادمة على ما فعلت مطلقاً.

وأعادها إلى الواقع لسعة الهواء البارد الذي تخلله صقيع الشتاء، لتدرك ان عليها ان تخرج من هذا الشارع العام الذي يقوم فيه الفندق، وتدخل في أحد الشوارع الفرعية. ذلك ان المتعقبين سرعان ما يكونون في أثرها بعد دقائق وهي لا تستطيع مواجهة اي انسان الآن. ذلك انها كانت ترتجف الى حد لم تكد تستطيع فيه الوقوف بثبات.

وانعطفت في شارع ضيق، مخلفة الشارع العام باضوائه وازدحام حركة السير فيه، حيث وقعت عيناها على حانة صغيرة تكاد تكون مهجورة، وحالما رأت نظرة الدهشة التي

رمقها بها المستخدم الشاب، انتبهت الى ان معطفها وحقيبة يدها ما زالا مع جو في الفندق، في الوقت الذي كان فيه ثوبها الخفيف هذا لا يصلح لمثل هذا الجو في الخارج.

وعندما دخلت استراحة السيدات، استندت إلى الجدار البارد شاعرة بالدوار. ان عليها ان تلتمس من رجل الحانة أن يسمح لها باستعمال الهاتف. فقد تستطيع الاتصال بصديقها جو في الفندق لتطلب منه موافاتها بأشيائها تلك. واغمضت عينيها. إنه سيثور، ولكن، ليس بامكانها ان تتصرف بغير ذلك، حتى مفتاح شقتها كان في حقيبة يدها.

وكان اتصالها به أسوأ مما توقعت. فقد بدا صوت جو متوتراً غريباً، ولكنه وعدها بأن يكون عندها بعد دقائق، وهذا كل ما كانت تريده.

وجلست مواجهة للباب، وهي ترتجف من اضطرام مشاعرها اكثر منه شعوراً بالبرد، بعد إذ ابتدأ إدراكها لما فعلت، يعصف بكيانها. لاشك ان اباها كان حتماً سيتملكه الذعر للمشهد الذي احدثته ابنته الوحيدة. وهزت رأسها بألم وهي تتصور وجهه الوديع. لقد كان من الرقة والثقة بالآخرين بحيث شكّل فريسة سهلة لأمثال كين ستيل عديمي الرحمة. أو، كما يقول المثل، الحمل والجزار.

«الآنسة غوردون؟» وتجمدت في مكانها لحظة لا نهاية لها، قبل ان تدير رأسها لتقابل المصير المرعب من وراء ذلك الصوت الكريه عند الباب الذي كان يقول: «انك لن تفلتي بهذه السهولة، يا آنسة غوردون.»

لم يسبق قط لجاني ان شاهدت، من قبل، وجهاً قد اسود

www.lilas.com/vb3

من الغضب بهذا الشكل الذي تراه الآن، مما غير ملامحه باجمعها.

وصرخت فيه وهو يمسك بذراعها يرغمها على الوقوف على قدميها: «ماذا...؟» وبترت جملتها وهي ترى نفسها تدفع بعنف من خلال الباب، إلى الخارج حيث كان سائق في ثيابه الرسمية، يجلس بصمت وراء عجلة القيادة في سيارة بنتلي رائعة بلونها الرمادي الفضي. وكانت بزته الأنيقة بنفس لون السيارة. وكانت عيناه جامدتين بينما كان كين ستيل يشير إلى السيارة وهو يقول غاضباً: «اصعدي.»

فأخذت تحاول تخليص نفسها من قبضته الحديدية، وهي على اهبة الهرب لدى اول فرصة.

وعاد يقول بلهجة بالغة التوتر: «قلت لك اصعدي يا آنسة غوردون.»

فقالت: «لقد سمعتك.» وكانت تجاهد لكي تمنع الخوف الذي كان يسرع بخفقان قلبها، من ان يظهر في وجهها او صوتها. ولكنها كانت تدرك، ببالغ الذل، ان باستطاعته ان يشعر بالرجفة التي تسري في جسدها من خلال قبضته القوية على ذراعها. لم يكن ثمة انسان في ذلك الشارع الخفيف الاضاءة. ونظرت حولها فاقشعر جسدها وشعرت براحتيها تعرقان من الرعب. أليس ثمة من ينقذها؟ أين هو جو، وأين الآخرون؟ ان بامكانها ان ترى اضواء اشارة السير وتدفق الحركة في ملتقى الشارعين، ولكن هنا، في هذا الشارع الخلفي الهادىء، كان كل شيء يبعث على الرهبة.

وأدارها إليه لتجد نفسها تحدق في وجهه القاسي وهو يقول: «إذا كنت تتوقعين ان يأتي جو فلاندرز لانقاذك، فأنت مخطئة. انظري إلى داخل السيارة.»

فنظرت خلال باب السيارة البنتلي المفتوح لترى معطفها وحقيبة يدها على المقعد. وهتفت قائلة بصوت ينضح مرارة: «كيف تمكنت من احضارهما؟ هل استعملت شيئاً من السلطة والنفوذ ما جعلك تتوقع من وراء ذلك التبجيل والاحترام؟» لماذا خذلها جو بهذا الشكل؟ كيف بامكانه ان يفعل هذا؟

فأجاب ببطء: «تماماً. لقد سبق وقابلت السيد فلاندرز في اكثر من مناسبة. وقد تفضل بالتقدم الى مساعدي عندما رآه يطلب من موظفة الاستعلامات ان تذيع اسمك في الوقت الذي اتصلت انت فيه هاتفياً. لقد كان يعرفني...»

فقاطعته وهي ترتجف: «انني أعرفك أيضاً وهذا هو السبب بالضبط، في انني ارفض الدخول معك إلى السيارة.»

فقال متوعداً: «أعيدي التفكير في ذلك.»

وارتسمت على شفتيه ابتسامة اشبه بتكشيرة الذئب، مبدياً اسناناً قوية بيضاء، وهو يتابع قوله: «وإلا فستتهمين بالقذف والمهاجمة والتسبب في عراك في مكان عام. هل اتابع كلامي اكثر من ذلك؟»

ونطقت عيناه بالقسوة وهو يتابع قائلاً: «ان سجن النساء ليس مكاناً جميلاً لقضاء ليلة فيه، يا آنسة غوردون، ولكن هذا ما سيحدث إذا بقيت على اصرارك هذا.»

فاتسعت عيناها البنيتان العميقتان برعب وهي تحملق في ذلك الوجه القاسي بينما كان هو ينظر اليها بعينين

www.liilas.com/vb3

ضيقتين تنطقان بالشر. وقالت: «انك لن... هل ستفعل ذلك حقاً.»

فأجاب وهو يترك ذراعها فجأة: «طبعاً سأفعل.» وصعد إلى السيارة تاركاً إياها واقفة ترتجف على الرصيف. ثم عاد يقول: «لك أن تختاري، يا آنسة غوردون. وعندك مهلة عشر ثوان لذلك. فإما ان تصعدي بعدها إلى السيارة لكي يمكننا ان نناقش، على انفراد، أسباب تهجمك ذاك، وإما أن ندع القضية كلها بين أيدي المسؤولين. فأي أمر تختارين؟» وأنهى كلامه هذا بصوت عميق خال من الشفقة.

فعضت على شفتها السفلى لحظة وهي تقف مرتجفة في جو المساء البارد ذاك، ثم سألته: «إلى أين ستأخذني؟»

فمال نحوها مصوباً إليها نظرة ثاقبة وهو يجيب بقوله: «هذا شأني أنا. لقد انتهت المهلة، يا آنسة غوردون وانتهت محاولاتي الرقيقة لاقناعك.»

فجفلت وهي تقول بيأس: «إنك لم تترك لي خياراً آخر.»

وأفسح لها مجالاً لكي تصعد وهو يضحك بخشونة قائلاً: «هذا صحيح تماماً.»

وصعدت إلى السيارة وقد بانت عليها التعاسة، وما أن استقرت في مقعدها حتى غمرها الشعور بالرفاهية البالغة وقد افعمت أنفها رائحة الجلد الممتاز ممزوجة برائحة كولونيا بعد الحلاقة غالية الثمن. وفي داخل السيارة، تجلى لها فجأة كبر حجمه، ولأول مرة تلحظ عرض كتفيه غير العادي وصدره الفسيح الذي يتناسب مع طوله الفارع.

وقال: «والآن، هل ستعطيني عنوانك؟»

وأرغمت نفسها على النظر إلى وجهه المغضن المظلم وهي تجيبه بقولها: «كلا. لن افعل.»

فقال: «حسناً جداً.» وأدار رأسه نحو السائق، ثم اعطاه عنواناً لم تسمع به قط من قبل، قبل ان ينزل، بعنف، الزجاج الذي يفصلهما عن السائق، وهو يقول ببطء، وبلهجة كالصقيع: «لقد سألتك، فلا تنسي هذا.»

وما لبث الخوف الذي كانت تحاول كبته طيلة الوقت، ان تفجر بعنف لتقول: «صبراً لحظة، ليس بإمكانك ان تختطفني.»

«اختطفك، يا آنسة غوردون؟» وبان الهزء على شفتيه وهو يتابع قائلاً: «ولماذا، اختطف فتاة كريهة مهزوزة مثلك؟ إن في حياتي من المشكلات ما يكفي، فلماذا أسعى إلى المزيد؟»

وتجاوزت عن هذه الإهانة مؤقتاً اذ كان لديها ما هو أهم من ذلك، وسألته: «إلى أين نحن ذاهبان، اذن؟» فاتكأ إلى الخلف في مقعده الوثير وقال وهو يغمض عينيه: «ستعلمين ذلك قريباً جداً، لقد نلت الكفاية هذه الليلة، فاقفلي فمك الكريه الصغير إلى ان نصل إلى هدفنا. ولا أدري لماذا اكلف نفسي عناء البحث عن سبب كل هذا، لاشك انني مجنون.»

فقالت: «انك تعلم أن...»

فقاطعها دون، ان يفتح عينيه، بلهجة اسكتتها: «اسكتي، يا آنسة غوردون.» لقد كان رجلاً هائلاً. وشعرت بخفقات قلبها تتصاعد لدرجة تأكدت معها من أنه لا بد سمعها. كان قوياً خطراً، ودفعها الذعر، لدى ادراكها، فجأة، أنها سحبت

www.liilas.com/vb3

النمر من ذيله، دفعها إلى تحويل نظرها إلى خارج النافذة بيأس وقد اضطرب تفكيرها. هل تراها تتمكن من القفز من السيارة لدى توقفها عند الاشارة الضوئية القادمة؟ إنه، عندذاك، لن يتمكن من اللحاق بها في شوارع لندن.

وقفزت لدى سماعها صوته عميقاً بالغ الرصانة وهو يقول: «لقد اقفل بينز النوافذ اوتوماتيكيا بناء على تعليماتي.»

ونظرت إلى وجهه بحدة لترى ان عينيه مازالتا مغمضتين تماماً وهو يتابع قائلاً: «استريحي في مقعدك واستمتعي برحلتك هذه، يا آنسة غوردون. انك في قبضتي الآن سواء عجبك هذا أم لا.»

فقالت: «إنه لا يعجبني.»

فقال وهو يغير من جلسته: «حسناً، لك أن تعتبري هذا جزءاً صغيراً من عقابك عن فعلتك تلك.»

فقالت بحدة غير مصدقة: «عقابي؟ اسمع الآن، انني لا أفهم ماذا يجول في ذهنك، ولكن...»

فقاطعها وقد اتكأ في مقعده دون حراك وكأنه هر ضخم خطر: «لك أن تفهمي ما تشائين يا آنسة غوردون. ولكن، ليكن في مفهومك ان ليس ثمة من يعترض طريقي، ثم يفلت من العقاب.»

وحدقت هي فيه بصمت بينما السيارة تنطلق بسرعة مجتازة الاشارات الضوئية، رغم ان تحديقها ذاك كان لا معنى له وهو مغمض عينيه. كان رجلاً ينطق بالرجولة. وجالت انظارها بتكاسل بين معالم وجهه الخشنة وشعره الأسود الذي مسه الشيب فوق الأذنين. وبدا لها قوياً، مليئاً بالحيوية... بالغ النشاط والثقة بالنفس.

وتجمدت في مكانها ذعراً وهي تلمس المدى الذي وصلت إليه افكارها. وما الذي يهمها حتى ولو كان انشط الرجال على وجه الأرض. انه، بالنسبة اليها، كين ستيل الذي تكرهه وتبغضه، فمهما كانت وسامته... ولكن، هل هو وسيم حقاً؟ وأخذت تتأمل، مرة اخرى، ذلك الوجه المسترخي. كلا، كلا مطلقاً. انما هناك، في الحقيقة، جاذبية اخاذة تنطق برجولة تفوق أي جمال صبياني وهزت رأسها لخداعها، هذا، لنفسها. اذ ليس ثمة خير في هذا الرجل مطلقاً، مهما كان منظره او أي شيء آخر.

كلما طوت السيارة المسافات، كان شعورها بالقلق يزداد، لقد كان الأمر في منتهى السخرية، واذا لم تقف السيارة فستبدأ بالصراخ والضرب على الزجاج الفاصل بينهما وبين السائق إلى أن ينتبه هذا، فيقف. فهي امرأة ناضجة في الرابعة والعشرين وليست تلميذة لا حول لها ولا قوة.

وقال: «هل أكلت شيئاً؟»

«ماذا؟» ونظرت إليه بعنف لدى سماعها صوته العميق هذا بحيث لم تستوعب كلياً ما قال.

وفتح عينيه الزرقاوين المسيطرتين لتسكتها وهو يقول: «لقد سألتك إذا كنت قد سبق وتناولت طعاماً، قبل ان تؤدي ذلك العرض الرائع.»

فقالت: «انني لم أكن أؤدي عرضاً، كان هذا...» وتلاشى صوتها بعد اذ لم تجد التشبه المناسب وتصلب جسدها وهو يبتسم ببرود وقد كسا وجهه الاحتقار البالغ، وهو يقول ساخراً: «لا يدهشني ان أرى عملك ذاك قد ألجم لسانك،

www.liilas.com/vb3

واطمئنك إلى أن تأثير ذلك العمل كان له عليّ نفس التأثير.»

فنظرت إليه بحقد وهي تقول: «حسناً...»

فعاد يكرر بلهجة أنبأتها أن من الأفضل لها أن تجيب عن سؤاله حالاً: «لقد قلت، هل تناولت طعاماً؟»

فأجابت بلهجة متوترة وقد نضحت عيناها بالكراهية والعداء: «كلا، في الحقيقة، مع انني لا أدري مبلغ علاقتك بهذا الأمر...»

فقاطعها بإشارة من يده تنبيء عن ضيقه، وهو ينظر من النافذة قائلاً: «دعي الحديث عني... ها قد وصلنا.»

فقالت بحذر: «وصلنا؟ إلى أين؟» وما لبثت عيناها ان اتسعتا حين دخلت السيارة الرائعة الجمال خلال بوابة واسعة مفتوحة على مصراعيها قائمة في جدار من القرميد، لتدرج في ممر فسيح مرصوف بالحصى، متجهة إلى منزل ضخم.

ونظر إليها وهو يقول متهكماً بعد إذ رأى شيئاً من اللون يزحف إلى وجنتيها: «انه منزلي، وهو المكان الذي كلمتي فيه هي قانون مطاع. هل فهمت؟»

وكانت عيناه تنظران بسخرية إلى خوفها البادي.

قالت وقد بدا الخوف في لهجتها: «منزلك؟ اسمع، انني لا اعرف ما هي اللعبة التي تقوم بها، ولكن...»

فقاطعها بحدة: «انني لا ألعب يا آنسة غوردون.»

وكان وجهه متحجرا وعيناه في مثل برودة الثلج وهو يتابع قوله: «فاللعب هو آخر ما أفكر فيه، لقد تعرضت لهجوم دون انذار مسبق، واتهمت بمختلف انواع الجرائم، وارغمت على ترك مؤتمر صحافي تحت اسوأ الظروف وأنا

أعلم أن صورتي ستحتل الصفحات الأولى من صحف صباح الغد مما سيسر منافسي العديدين، وذلك بسبب خاطر اهوج عصف برأسك. فاذا كنت تعتبرين هذا لعباً، فإنك أشد جنوناً مما تصورتك.»

فقالت: «انني لست مجنونة...» وسكتت فجأة وهي تراه يبسط جسمه الكبير والسائق يفتح له الباب، ليجرها من السيارة جراً حالما اصبح في الخارج.

وقال ببرود: «عليك الآن أن تدخلي المنزل وتشرحي لي سبب تصرفك ذاك. والأفضل أن توفقي في اقناعي بتبرير ما حدث.»

وعندما اصبحت بجانبه، قالت: «يا لك من مستبد.»

ووقفت تنظر إلى ذلك المنزل الذي لا مثيل لضخامته. ولم تعرف ايهما اكثر ارهاباً لها، أهو هذا المنزل الجميل بشكل لا يصدق، أم هذا الشخص الضخم الواقف بجانبها.

لقد كانت، في الفندق من السخط والانفعال ما اعماها عن انه لا بد اطول قامة منها ذات المئة وثمانية وخمسين سنتمتراً، وها هو واقف يشرف عليها كثائر... وتسمرت عيناها في تلك العينين الثلجيتين...

وأشار اليها لتصعد الدرجات الحجرية الفسيحة التي تقود إلى الباب الأمامي المزخرف، وهو يقول عابساً: «انك لا تدركين ما فعلته، يا آنسة غوردون، لقد جعلتني افقد اعصابي هذه الليلة، وهذا شيء لم يحدث لي منذ سنوات، ولا أريده ان يحدث مرة أخرى.»

وحدقت فيه بنظرات متمردة بينما ساقاها ترتجفان، وهي تقول: «كلا؟»

www.liilas.com/vb3

فأجاب: «كلا. ولكنني اشعر بأن هذا ممكن تماماً. فقط عليك ان تتصرفي بهدوء.»

فجذبت ذراعها من يده وهي تحدق فيه بعينين تنضحان بالحقد وهي تقول: «بهدوء؟ انك وقح... انك حقاً...»

فقال بلهجة متوترة في الوقت الذي كان السائق يتركهما متابعاً طريقه إلى حيث الكاراج: «هل تنعتينني بالوقاحة؟ ولكنني لا أنوي البقاء واقفاً هنا اتراشق معك بالألفاظ، أكثر من هذا. هيا، انك ستدخلين، وستجلسين ثم تخبرينني بسبب كل هذا. افهمت؟»

وعندما فتح الباب، ساورها شعور قوي، للحظة قصيرة، بأنها داخلة لتشاهد النجمة المشهورة تنزلق على السلم الدائري الذي يطل على نهاية هذا الجدار الشاهق فلن يدهشها هذا المنظر أبداً. وشعرت بسخرية مرة وهي تنظر إلى السجادة التي كانت تغوص فيها إلى كاحليها، وإلى الخشب الأثري والثريات المتألقة فوق رأسها. وهي ضربت صاحب كل هذا. لم يحدث انها اصيبت بنوبة عصبية قط من قبل. ولكنها شعرت بشيء من هذا. وقال لها وهو يوجهها نحو باب ضخم، مجتازاً بها قاعة فسيحة: «من هنا.» وقبل ان تدرك ما كان يحدث، وجدت نفسها في غرفة لا تماثلها غرفة في اي منزل فخم.

«اجلسي.» واطاعته لتتهالك، شاكرة، على كرسي سرعان ما كشف، باتساعه، ضآلة حجمها، وكانت ساقاها قد اوشكتا على الانهيار.

وقال لها بملامح خالية من التعبير: «اتريدين ان تشربي شيئاً؟»

وحولت أنظارها عن قطع الأثاث الرائع بصعوبة، لتحدق في ذلك الوجه القاتم، وهي تسأله: «عفواً؟»

فعاد يسألها بضيق: «اتريدين أن تشربي شيئاً؟»

فأومأت برأسها بحذر وهي تقول: «شيئاً من العصير، من فضلك، ولكنني لن امكث هنا طويلاً. سأستدعي سيارة أجرة تعيدني إلى منزلي.»

وملأ لها كوباً من العصير مشى به إليها، ليجلس بعد ذلك، على كرسي واسع ذي ذراعين قبالتها، وهو يحمل كوبه بيده، بينما لم يكد هذا الكرسي يستوعب جسمه الضخم.

وتساءلت فجأة بغضب، هذه الرفاهية وهذا الترف، كم منه قد أحرزه صاحبه من وراء تدمير حياة الآخرين كما فعل معهم؟ وذلك بدفع رجال الأعمال إلى الحافة لكي يلجئهم إلى الدائنين ومن ثم يطالبونهم بالديون رافضين تمديد مهلة سدادها... لقد كانت قائمة أسماء الذين دمرت حياتهم بهذه الوسيلة، لا نهاية لها، ولا شك انه، هو، على علم بكل هذه الخدع.

قال وهو يرى عينيها البنيتين تعودان إلى التألق: «حسناً، فلنستمع الآن إلى كل شيء، ومنذ البداية، من فضلك.»

فقالت وهي تحاول تمالك فيض من المشاعر كانت على وشك التغلب عليها وهي تفكر في ان كل هذا الثراء الهائل الذي يمثله هذا المنزل، ما كانت شركة أبيها الصغيرة الا قطرة في بحره، قالت: «وما الغاية من ذلك؟»

فقال بعنف: «الغاية هي اتهامك لي بأشياء خطيرة هذه الليلة، متعمدة قيامك بأقصى حد من الاثارة. وهذا يبدو لي سيئاً، يا جميلتي، فما هو هدفك من وراء ذلك؟»

www.liilas.com/vb3

فقالت بازدراء: «من وراء ذلك؟» ووضعت الكوب من يدها على المنضدة التي بجانبها، بعنف، وهي تهب واقفة لتخطو بسرعة نحو النار المستعرة في المدفأة. كانت تشعر بالبرد... بالبرد الشديد الذي لا يمكن ان تشعر بعده بالدفء، وكانت ترتجف بعنف وقد ملأتها الكراهية لهذا الرجل.

ونهض بسرعة وهو يرى الرجفة العنيفة التي اصابتها، وهو يقول: «انني لم اعطك معطفك، أليس كذلك؟ انه ما يزال في السيارة.» وعندما شعرت بجاكتته الثقيلة على كتفيها، تصلب جسدها احتجاجاً. كان القماش مشبعاً برائحة عطره، مما جعلها ترفضها قائلة: «انني لا أريدها.» وأزاحت الجاكتة عن كتفيها تعيدها إليه وقد بدت عيناها قاتمتين في وجهها الشاحب.

وضاقت عيناه وهو يستعيد الجاكتة منها، ما جعلها تدرك انه شعر بتغير شعورها نحو اي اتصال به. لمحت ذلك في توتر فكه وفي امارات القسوة التي بدت على فمه المطبق. ولاحظت بيأس، ان شعورها السابق بالافتتان، قد عاد بكامل قوته. لقد بدت قوة كتفيه الآن اكثر وضوحاً في قميصه الحريري الأزرق. وكان جسمه الصلب مشدوداً وهو يحدق فيها بصمت عدة ثوان طويلة متوترة.

وأخيراً قال ببطء: «انك تدفعينني إلى تجاوز الحد. وهذا ليس تهديداً يا آنسة غوردون. انني لا أريد أن أؤذيك. ولكن...»

«تؤذيني؟» وكاد ذلك أن يكون مضحكاً لولا الحزن الذي يغمر نفسها، وتملكتها المرارة وهي تنظر اليه بعينين مبللتين بالدمع.

وعادت تقول وهي تبذل جهدها لتتمالك اعصابها: «تؤذيني؟ لا يمكنك ان تفعل شيئاً نحوي اكثر مما سبق وفعلت يا سيد ستيل. لقد افقد جشعك، عديم الرحمة، أبي عمله ومنزله، وفي النهاية حياته. لقد ذهب كل شيء، كل شيء. لقد محا عملك هذا الاثنين وعشرين عاماً من حياتي. كيف لك بأن تفهم هذا؟» ودفعت إلى الخلف بشعرها الحريري الأسود الكثيف عن كتفيها بيد مرتجفة، وهي تتابع قائلة: «وأسوأ ما في الأمر هو انك لا تتذكر حتى اسمه.»

ولم تعد تستطيع ان تحبس الدموع التي كانت تكبتها طيلة المساء، وعندما حنت رأسها وقد اعمتها تلك الدموع كما بللت وجنتيها، ادركت، وقد تملكها الذعر، انها جعلت نفسها تبدو اكثر حماقة مما هي بالفعل، وان لا شيء هناك يمكنها عمله بهذا الشأن، لا شيء مطلقاً.

www.liilas.com/vb3

الفصل الثـانـي

وعندما توقفت العاصفة، واستحال بكاؤها إلى نشيج متقطع، قال لها بثبات: «إذن، فشكواك حقيقية.» قال هذا بملامح خالية من التعبير. ورفعت نظرها إليه بسرعة لترى ان العينين الزرقاوين الصارمتين قد أصبحتا متحفظتين كما لمست فيه تغيّراً غامضاً لم تستطع ان تتبينه جيداً.

كانت القسوة والسخرية ما زالتا مرتسمتين على شفتيه، وكذلك الخطان المحيطان بفمه. وكانت ملامحه الظاهرة ما زالت قاسية عنيفة. ومع هذا، كان ثمة شيء ما... وقال ببطء: «بامكاني ان أميّز التعاسة الحقيقية عند رؤيتها، يا آنسة غوردون، ولكن عملك ما زال لا عذر له. لقد كان بامكانك ان تطلبي مقابلتي في أي وقت لكي نضع حداً لسوء التفاهم هذا...»

ورفعت رأسها كنمرة صغيرة وهي تقول: «سوء تفاهم؟ صدقني، ليس هناك سوء تفاهم. كما انه ليس في امكانك استغفالي بهذا الشكل، انني لست غبية.»

فقال ببرود: «انني لن أرد على هذا بشكل صريح، ذلك ان عملك هو أكثر فعالية من أية كلمة أقولها، كم مضى على موت أبيك؟»

فحدقت فيه بتوتر وهي تجيب: «سنتان.»

فعاد يسألها متجاهلاً توتر جسدها المؤلم: «وهل بكيت عندما مات؟»

فابتدأت تقول: «حسناً، بالطبع...» وما لبث صوتها ان تلاشى وهي تقطب حاجبيها مفكرة، ثم تتابع قائلة: «كلا، لا أظن انني بكيت، في الحقيقة.»

فقال: «هذا شيء سيىء جداً بالنسبة إلى نفسيتك.»

فنظرت إليه بدهشة، كان هذا آخر ما تتوقعه من شخص قاس عنيف مثله. وتابع قائلاً: «ذلك أنه يخلق ظلاماً كالشرك، يغطي كل شيء.»

فقالت وهي تنتصب واقفة رافعة رأسها متحدية: «اسمع، إنني بخير ليس بي شيء.» وكانت كلماتها الأخيرة حافلة بالمعاني.

وأومأ هو برأسه بخفة وقد بدت الصرامة في نظراته، وهو يقول: «هل أفهم من هذا اننا عدنا إلى الاتهامات؟»

فأجابت بفتور وهي تزيح عن وجهها المبلل خصلة من شعرها: «أوه، انك تعرف ما أعني، لا يمكن ان تكون قد نسيت الأمر تماماً، لقد شعرت بهذا في الفندق.»

فأجاب: «فقط بالنسبة لإسم شركة أبيك.»

هزت برأسها دون أن تتفوه بكلمة. وقال لها: «اسمعي، حدثيني بالأمر منذ البداية.» وعندما مشى إلى كرسيه لاحظت شيئاً من الحذر يشوب مشيته يشبه التردد، وكان هذا غريباً بالنسبة إلى رجل مثله. ولكن، عندما جلس أزاحت هذه التصورات جانباً بضيق. لم يكن لها حاجة إلى جعله موضع اهتمامها.

وأجابت: «حسناً، ليس هنالك الكثير ليقال.» وقاومت عطسة كادت تفاجئها، فنظرت إليه قائلة ببطء بصوت كئيب: «هل أجد عندك منديلاً؟»

www.liilas.com/vb3

فقال يجيبها بنفس الصوت الكئيب الفاتر الذي خاطبته به: «نعم. عندي منديل.» وصبغ الاحمرار وجهها وهو يتقدم منها بمنديل قطني كبير أبيض. هل كانت لهجتها بهذا الشكل الذي قلده هو؟ كان عليها أن تلاحظ نفسها إذ يجب ان لا يعتبرها أقلّ منه... كيف يجرؤ على السخرية منها؟

وابتدأت تتكلم بهدوء بعد ان مسحت أنفها، ثم استقرت في كرسيها، قالت: «لقد أسس والدي الشركة بالاشتراك مع أمي في العام الذي ولدت أنا فيه، وكان نجاحهما جيداً... وكان لنا منزل جميل عشنا فيه برفاهية عادية. ليس مثل هذه الرفاهية هنا، بالطبع.» ونظرت إليه بسخرية وهي تستطرد: «ولكننا كنا سعداء.»

وتوقفت عن الكلام، فقال يستحثها وقد شردت نظراتها مع الذكريات: «نعم؟»

فتابعت تقول: «وما لبثت أمي أن وقعت مريضة تشكو من قلبها، عندما كنت في أولى سنوات المراهقة وكان أبي يمضي أكثر أوقاته معها. ولا أظنها كانت تعلم بانه رهن المنزل لكي يبقي على مسير الشركة. ولكنني لم أعلم بذلك أبداً. وقد توفيت عندما دخلت الجامعة.»

قال: «إنني آسف لذلك.» وكانت عيناه النفاذتان لا تغادران وجهها وهي تتحدث، كما ان صوته العميق كان خالياً تماماً من أية مشاعر.

وتابعت تقول: «وبطبيعة الحال، أصبح والدي محطماً تماماً، ولكنه ألقى بنفسه في الشركة محاولاً أن يسترد الوقت الذي سبق وضيّعته، كما أظن، وقد نجح في ذلك بشكل جيد. فقد كان عندنا مجموعة مخلصة من الأيدي العاملة،

كما أنه أصبح بعد رحيل أمي، يمضي في الشركة ما يشاء من الساعات، وهذا في الحقيقة، ساعده تماماً إذ شغل ذهنه عن أحزانه. وكان قد حصل على عقد كبير ملأه بهجة، إذ كان ممكناً معه، تخليص المنزل المرتهن، فهو كان يريده لأجلي، ولكن، عند ذاك...» وسكتت فجأة رافعة عينيها المتسعتين إلى وجهه لتستطرد قائلة: «عند ذاك، تدخلت مؤسسة ستيل.»

وسألها عابساً: «كيف؟»

فحدقت فيه بغضب وهي تجيب: «ألا تتذكر؟ كان هذا منذ سنتين فقط. لا يمكنك أن تنسى التفاصيل بمثل هذه السرعة.»

فسألها متوتراً: «هل عندك فكرة عن مدى اتساع مجلس إدارة الشركة عندي؟ ثم هنالك العديد من الفروع للشركة في مختلف أنحاء العالم مما يأخذ الكثير من وقتي واهتماماتي. ليس بامكاني التعامل، شخصياً مع كل شيء.»

فقالت على الفور وقد اتسعت عيناها: «كلا. معك حق لا أظن ذلك.» لم يكن هذا قد خطر في بالها من قبل. وتابعت تقول: «حسناً، إنك... أعني شركتك، كانت قد اشترت بقية المبنى الذي يقوم فيه مصنعنا الصغير. وكان المكتب في الداخل وكنتم تريدون الأرض الملحقة بالمبنى. ولم يكن ثمة مكان ننتقل إليه على الفور، فقد كان ما قدمتموه من مال مبلغاً صغيراً، فقد كان معروفاً للجميع ان مصنع أبي يواجه مصاعب. وعندما رفض أبي البيع، ابتدأ الضغط عليه من جانبكم.»

www.liilas.com/vb3

فقال بوجه خال من التعبير يقرب من عدم الاهتمام: «فهمت.»

وعادت تقول: «وفجأة، ابتدأت البنوك تطالب بديونها وبقيمة الرهن. وألغيت العقود.» وحدقت فيه بغضب وهي تتابع: «إنها طريقة جميلة لأداء الأعمال. أليس كذلك يا سيد ستيل؟ كل شيء جائز مهما كان. ويظهر ان هذا هو مبدأكم حتى ولو لم تكن تشهد أنت شخصياً كل هذه الأمور. ليس بامكانك ان تخبرني أن موظفيك يخرجون عن النهج المتبع في مؤسستكم لتسيير أعمالكم.»

فقال ببرود جعلها تجفل: «لم أكن أعلم أن عليّ أن أخبرك بكل شيء.» كان يتكلم معها بينما يبدو أن ذهنه تقريباً في مكان آخر، وحدقت فيه بعنف. ما الذي كان يفكر فيه؟ وعاد يقول وهو يميل إلى الأمام قليلاً: «تابعي كلامك.»

فقالت محاولة تمالك هدوئها: «وكان الوداع بالنسبة للمصنع. والوداع بالنسبة للمنزل. واستطاع أبي أن يحصل على عمل جزئي براتب زهيد، وسكن مع بعض أصدقائه، ليتوفى بعد أربعة أشهر. وقد شخص الطبيب سبب وفاته التهاباً رئوياً. ولكن الذي قتله هو فقط، فقدانه الرغبة في الحياة.» ونضحت نظراتها بالألم وهي تحدق فيه، متابعة كلامها: «إنه أخبرني ذلك بنفسه. قال انه يريد أن يموت.»

فقال: «وتلومينني أنا لذلك؟»

فنهضت من مقعدها وهي تجيب قائلة: «تماماً. فقد تصاعدت الرائحة النتنة، كما يقول المثل، أمام بابك، يا سيد ستيل، دون أن تفكر بإزالتها. إن الرائحة النتنة هذه تتصاعد

من إدارة الأعمال في مؤسستك، من موظفيك... منك أنت.»

فقال متهكماً: «لقد أبليت بقصتك بشكل نابض بالحياة.»

فأجابت وهي تواجهه قائلة، وقد صعد الدم إلى وجنتيها، وبدا شعرها الأسود الكثيف متألقاً بلون أقرب للاحمرار في هذا الضوء الاصطناعي الوهاج وبينما اتسعت عيناها البنيتان: «أهذا هو كل جوابك؟ مجرد التهكم تنقذ به كرامتك الغالية؟ فلا اعتذار، ولا ندم، ولا شعور بالذنب؟»

فوقف بدوره وهو يقول: «لم أفعل شيئاً يجعلني أشعر بالذنب.» ومشى نحو حبل جرس طويل في زاوية الغرفة فجذبه مرتين، وعلى الفور فتح الباب لتدخل منه خادمة جميلة صغيرة الحجم تلبس الزي الخاص بالخدم. وقال لها بلطف: «هل بامكانك استدعاء السيدة لانقتون لكي تأتي بسرعة، من فضلك يا جين؟ أريد أن أكلمها بأمر ما.»

فأجابت الخادمة، وقد اتسعت عيناها الزرقاوان الكبيرتان لمرأى جاني، قائلة: «نعم يا سيدي. إنني آسفة، فنحن لم نعلم بعودتك إلى المنزل. كنا نظن انك ستمضي المساء خارجاً...»

فقال بحزم: «لقد تغيرت خططي.» وحالاً، تركت الخادمة الغرفة وهي تومىء برأسها بشكل عصبي. بينما كان هو يتابع: «إنني سأطلب تجهيز عشاء لنا.» ونظر إلى جاني، لتبادله هذه نظرته بذعر، قائلة بسرعة: «ليس لأجلي، يا سيد ستيل لقد سبق وقلت انني سأعود إلى منزلي.»

فقال بحزم: «لا سبيل إلى ذلك، إنني لم أنته منك بعد. هذا إلى انني بحاجة إلى أن أدقق في قصتك.»

فقالت وهي تنظر إلى الساعة في معصمها: «الآن؟ إن

www.liilas.com/vb3

الوقت بعد السادسة واليوم الجمعة حيث لا يوجد أي إنسان في عمله.»

فقال ببرود: «ثمة أناس عندما أريدهم أنا يحضرون حالاً. والحقائق ستكون مسجلة. أما التفاصيل فيمكنها أن تنتظر إلى ان أعلم من الذي كان مسؤولاً عن تلك المعاملة في ذلك الوقت.»

فقالت وهي تخطو نحو الباب: «اسمع. انني ذاهبة.» ولكن النظرة الصارمة التي ألقاها عليها ذلك الرجل الكبير الجسم، جمّدتها في مكانها وهي تتابع قائلة: «إنني جادة في ما قلته. أريد أن أذهب إلى بيتي.»

فقال: «لا تتصرفي كالأطفال.»

فتوهج وجهها غضباً من كلامه هذا، بينما كان يتابع قائلاً: «إنني فقط أعرض عليك العشاء بينما أقوم بالاتصالات اللازمة، وهذا هو كل شيء. فأنت محظوظة جداً لكونك لست الآن في المخفر حيث الشرطة تحاسبك على ما فعلت.»

فأجابت وهي تتصور تلك الفتاة الشقراء الطويلة القامة التي كانت بصحبته: «ولكن كان يبدو انك كنت تنوي قضاء المساء خارجاً و...»

فقاطعها قائلاً بلطف: «لقد تأخرت في الاهتمام بوضعي الخاص، أليس كذلك. يمكنك ان تسكبي لنفسك كوباً ثانياً من العصير ريثما أقوم ببعض الاتصالات الهاتفية، ثم نتناول الطعام بعد ذلك.»

وعندما أوشكت على فتح فمها للمناقشة، فتح الباب وابتسم السيد ستيل للمرأة المتوسطة في السن التي دخلت

الغرفة مرتدية ثوباً أسود وعاقصة شعرها الذي خطه الشيب إلى الخلف. وقال يخاطبها: «لقد تغيّرت خططي يا سيدة لانغتون، وأنا الآن أطلب عشاء لشخصين، فهل هذا ممكن؟»

فأجابت المرأة وهي تبتسم بأدب: «طبعاً يا سيد ستيل، وسيكون جاهزاً بعد نصف ساعة.»

وعندما خرجت المرأة بعد أن حنت رأسها لجاني تحييها، حدقت هذه فيه قائلة بغضب: «ما الذي عليّ أن أفعل كي أقنعك بأنني لا أريد عشاء؟»

فأجاب بهدوء: «لا شيء، فأنا أعرف هذا.»

فقالت: «فلماذا إذن؟»

فأجاب: «لأن عليك أن تفعلي ما يقال لك.» وكان قوله هذا بمثابة جواب مكتمل، في نظره كما يبدو، وحدقت هي فيه ثائرة وقد أثارت غطرسته حنقها، ثم قالت له باشمئزاز عميق: «إنك رجل عجيب حقاً.» وزاد في ثورتها ابتسامته الساخرة وقد كست ملامحه الداكنة دعابة قاسية. كان ما يزال غاضباً. وقال معنفاً: «إنك لست أول امرأة تقول هذا. ولو عليّ أن أعترف بظروفك التي ألجأتك إلى هذا أولاً، وعادة يقال لي هذا مصحوباً... بحماس أكثر.»

فقالت بلهجة حاولت أن تضمنها ما تستطيعه من سخرية: «أحقاً ذلك؟ لقد كنت دوماً أظن أن الرجل الحقيقي يجب أن لا يتباهى بجودة ادائه مع النساء.»

فسألها بلطف وبرود مصطنع: «وهل تحدثت أنا عن النساء؟» ولكنها لاحظت أن إهانتها هذه قد جعلت عينيه تضيقان وفمه يعتدل وهو يقول: «أتعلمين أنك إذا وضعنا

www.liilas.com/vb3

قضية أبيك جانباً. انك امرأة سليطة اللسان؟ ألا يعجبك الرجال، يا آنسة جاني غوردون؟»

كان ما يزال يتذكر اسمها الأول منذ سمعه منها في الفندق رغم كل ما حدث، بعد ذلك من تشويش وإثارة. وشعرت وهي تنظر إلى ذلك الوجه الداكن بمثل ضرب المطرقة على أم رأسها، إذ تعلم فجأة ان هذا من اختصاص هذا الرجل. فقد كان ذهنه بمثل حدة السيف، وصلابة المسمار. فهو لا ينسى شيئاً أبداً. فلماذا إذن، ينسى قضية مصنع أبيها؟ وهل صدقته هي؟ وهل اشترك هو بهذا الأمر؟ إنه لا يبدو من أولئك الرجال الذين يدعون أي شيء ينساب من بين أصابعهم، مثل اقتناء المبنى الرئيسي كعقار. لا بد انه علم بالخطوط الرئيسية لهذا الوضع على الأقل، خصوصاً بالنسبة للمصاعب التي اعترضته. لقد علم بكل ذلك بالتأكيد كما أنه سبق وتذكر اسم المصنع كذلك.

وعندما عادت من تصوراتها هذه، إلى الواقع كان ما يزال يحدق فيها بعينيه الزرقاوين الحادتين.

وقال: «حسناً؟»

وكانت الآن قد نسيت موضوع الحديث الذي كان بينهما، فقالت: «ماذا؟»

فقال: «بالنسبة إلى الرجال، هل يعجبونك؟» وعندما أخذت تحاول استيعاب ما كان يقوله، تقدم هو نحوها خطوة قائلاً: «هنالك طريقة وحيدة لمعرفة ذلك...» أما الطريقة الخبيرة التي أمسكها بها، فلم تتذكرها جاني إلا بعد ذلك بوقت طويل، أما في هذه اللحظة القصيرة، فقد شغلت بمقاومة قوته المسيطرة هذه.

لقد أرغمت نفسها على الجمود التام، فقد كانا يعلمان هما الاثنين، أن أية حركة منها لم يكن من ورائها طائل، ولقد أحست أثناء ذلك بالكراهية لنفسها، شاعرة أنها تخون بذلك نفسها وذكرى أبيها. ولكن هذا كان برغمها، فقد كان رجلاً غير عادي.

وما لبثت أن وجدت نفسها طليقة، بينما كان هو قد تراجع إلى الخلف، حيث وقف هو عاقد الذراعين فوق صدره، ومضى ينظر إليها بعينين ضيقتين. وقال بصوت عميق رقيق: «هذا حسن جداً.» ولكنها لم تستطع أن تتفوه بكلمة وهي تنظر في ذلك الوجه القوي الخشن. وعاد هو يقول: «هذا، في الواقع، حسن جداً، أما الآن فسأسكب لك كوب شراب بارد، بينما أقوم أنا ببعض الاتصالات الهاتفية.»

وكانت ما تزال واقفة بصمت ذاهل، عندما ترك هو الغرفة بعد ذلك بثوانٍ بعد أن ملأ كوبها ثم وضعه على الطاولة الصغيرة بجانب كرسيها، وكانت ساقاها قد ابتدأتا بالاهتزاز حتى كادت تنهار على كرسيها وقد أصابها الدوار، عندما أيقظها من تلك الغيبوبة صوت انصفاق الباب خلفه، إنها لم تشك لحظة واحدة في أن تصرفه هذا كان الهدف منه معاقبتها. وتصاعد أنينها في تلك الغرفة الخالية. كان عليها أن تصرخ في وجهه عندما حررها، وتخبره بالضبط رأيها فيه، ثم تصفع وجهه... ولكنها سبق وفعلت ذلك هذا اليوم. وأغمضت عينيها لحظة بشدة. كل هذا كان حلماً... لا بد أنه كذلك...

وأخذت جرعة من العصير وهي تلقي بنظرها حولها في

www.liilas.com/vb3

أنحاء الغرفة الفخمة، مرة أخرى. ولاحظت صورة فوتوغرافية لرجلين، موضوعة على رف المدفأة ونهضت لكي تنظر إليها جيداً. كانت تمثل كين ستيل وأخاه أو ابن عم له... فقد كان الشبه غير عادي، بالرغم من أن الرجل الأصغر كان أصغر حجماً وشعره فاتح اللون. ومع هذا فقد كان الوجهان ينطقان بقرابة دم لا سبيل إلى نكرانها، ولا بد أنها أخذت منذ سنوات فقد كان وجه كين ستيل الذي كان يبتسم، يبدو أصغر سناً ولم يكن ثمة أثر لهذه الأخاديد العميقة في وجهه الموجودة الآن ولا لوخط الشيب ذاك في سالفيه، هذا إلى وقفته المتوترة قليلاً.

وفكرت فجأة في أنه يبدو الآن أكبر سناً، وكان هذا هو السبب في أنها لم تكن متأكدة من شخصيته في الفندق. فقد كانت الصورة التي كانت عثرت عليها بين أوراق أبيها تمثل رجلاً أصغر منه بكثير، مع التسليم بأنها من الصور التي تدفع للنشر في الصحف، ولهذا تبدو بعيدة عن الواقع والشبه لصاحبها. إن عليها أن تعود للنظر في تلك الأوراق مرة أخرى، ذلك أنها بعد أن تصفحتها باكية جمعتها في صندوق وضعته في خزانة، ومنذ ذلك الوقت، كان التفكير في العودة إلى تصفحها، تثير فيها الألم.

وعندما عاد، بعد عشر دقائق، كان يبدو عليها الاتزان وضبط النفس، ظاهرياً على الأقل. أما في داخلها، فقد كانت مشاعرها تغلي كبركان على أهبة الانفجار.

وقال هازلاً وهو يدخل الغرفة: «هل يعجبك لحم البفتيك والسلطة؟ وسلطة الفواكه في الختام؟» ونظر إليها بعينين ضيقتين وقد كسا ملامحه العبوس.

فأومأت برأسها وهي ترتجف، قائلة: «ممتاز.» وحدثت نفسها بأنها سرعان ما ستنتهي من هاتين الساعتين اللتين أمامها لتصبح، بعد ذلك حرة فلا تراه بعد ذلك أبداً. إلا إذا كان ذلك طبعاً في المحكمة. إذ لا شك أن القسوة تقود إلى الحقد، ولكن أن يدمّر باسم القانون كل ما سبق وبناه أبوها في سنوات، كل هذا يجب إيضاحه بهدوء ومنطق، بوجود مؤسسة ستيل. ولم تعرف لماذا يقوم بهذه المسرحية، ولكن هذا ما يحدث، دون شك بالعمالقة إذا اتحدوا هم عادة قساة ولا يعترفون بالخطأ أبداً. هذه هي القاعدة الأولى. وذكرت نفسها مرة أخرى، أن فعلتهم تلك كانت قانونية مهما بدا فيها من قسوة وإثم وبشاعة...

وعندما عاد يجلس أمامها أشارت إلى الصورة قائلة: «أهو أخوك؟»

فنظر إلى حيث أشارت وهو يجيب: «نعم، إنه كايث.»

فعادت تسأله: «أهو أصغر منك؟»

فأجاب: «بأربع سنوات. وقد أخذت هذه الصورة منذ ثلاث سنوات عندما كنا في إجازة في اليونان.»

فنظرت إليه بدهشة وهي تقول: «ثلاث سنوات؟» وحدثت نفسها أن تلك الصورة تبدو منذ عشر سنوات على الأقل. وقرأ هو على وجهها ما يدور في ذهنها، فقال بتوتر: «إنني في الرابعة والثلاثين من عمري، يا آنسة غوردن، وقد مات أخي السنة الماضية. هل بإمكاننا أن نترك هذا الموضوع الآن؟»

فأومأت برأسها بسرعة بينما شعرت بتوهج وجنتيها وهي تقول: «بالطبع.» وكيف كان لها أن تعلم أن أخاه قد

www.lilas.com/vb3

مات؟ كانت تظن أن كين ستيل لا بد أن يكون أكبر من أخيه بثماني أو تسع سنوات رغم جسمه القوي الفتي. وذلك الوجه ذو الجانبية الذي أفقدها اتزانها، ما الذي جعل فيه هذه الخطوط حول فمه وعينيه؟ لا بد أن كارثة عظمى قد أحدثت فيه كل هذا التغيير في ثلاث سنوات. أيمكن أن يكون ذلك بسبب موت أخيه؟ أم ان هناك سبباً آخر؟

كان العشاء ممتازاً ولكن الغرفة المزخرفة بالغة الاتساع، ليتناولا فيها الطعام كان أقل وصف لها انها مخيفة تثبط الهمة، وعندما دخلتها أخذت نفساً عميقاً علّه يساعدها على تمالك رباطة جأشها. فالمائدة الثقيلة الداكنة اللون، والسجادة البيضاء السميكة، والجدران التبنية اللون، هذا إلى الستائر المخملية.. كل ذلك كان هائلاً مخيفاً.

وبينما كانت الخادمة جين ترفع الأطباق المستعملة لكي تحضر الحلوى، سألته جاني: «هل تتناول طعامك هنا دائماً؟» ذلك أن وجبة العشاء كان يسودها التوتر والصمت المؤلم.

فنظر إليها بإمعان وقال: «عندما يكون لدي ضيوف فقط. ألم تعجبك هذه الغرفة؟»

فقالت مراوغة بسرعة: «وأين تأكل عندما لا يكون عندك ضيوف؟»

فقال باقتضاب: «في مكتبي، وفي الحقيقة أنا أمضي فيه أكثر أوقاتي في هذا البيت.» وسألها فجأة: «أتحبين أن نتناول الحلوى في المكتب؟»

فأجابت على الفور: «نعم من فضلك.»

فنظر إليها باستغراب ثم أجال النظر حوله في أنحاء الغرفة وهو يقول بارتباك: «ولكن، ما العيب في هذه الغرفة؟»

فأجابت بسرعة: «لا شيء. إنها رائعة الجمال، ولكنها كبيرة. حسناً، فلنكن صريحين، إنها هائلة.»

فعاد يجيل نظره في الغرفة قائلاً: «أحقاً؟ نعم، أظنها كذلك في الحقيقة. إنني لم أنتبه إلى ذلك مطلقاً.»

وتبعته وهي تفكر في الطريقة التي يعيش فيها البعض. واجتازا القاعة الكبرى إلى غرفة أصغر بكثير من الأخريات، ولكنها مع هذا تتساوى بمساحتها مع شقتها هي الصغيرة بأجمعها. ولكنها كانت تبدو مريحة، وكانت النار تشتعل في المدفأة بينما أحد جدرانها كان مغطى بالكتب التي كانت تتألق في ذلك الضوء الخفيف الذي يظهر من مصابيح نحاسية مثبتة على الجدران. وكانت الستائر الثقيلة ذهبية اللون مسدلة على النوافذ تصدّ برودة الجوّ، وكان هذا يضفي على الغرفة جواً بيتياً يزيده وجود هرّ كبير راقد على مقعد جلدي قرب المدفأة.

وقالت وهي لا تتصوره محباً للحيوانات: «هل تقتني هرّ؟»

فأجاب بلهجة غامضة: «بل هررة، هذا هو جونيير وثمة آخر يدعى كوزموس.» هذا بينما السيدة لانغتون وجين تنصبان المنضدة التي كانت مطوية في إحدى زوايا الغرفة، وأخذت جاني تمر بيدها على فراء الهر الناعم وهي تراقب كين ستيل من تحت أهدابها. إن له جمالاً رائعاً حقاً. وجعلت هذه الأفكار وجهها يتوهج خجلاً، فخفضت نظرها بسرعة.

www.liilas.com/vb3

إنها كلما أسرعت في الخروج من هنا كان ذلك أفضل. والأفضل أن تفكر في أن ما حدث بينهما إنما كان عقاباً منه لها لما قامت به من جرح لكرامته بعد ذلك المشهد الذي تسببت به أثناء المؤتمر الصحافي، وفكرت بتوتر، في أنه ككل رجل آخر لا بد قد صدمه أن يرى ثيابه القذرة تغسل أمام الناس.

وكان الدراق المغطى بالقشدة، لذيذاً ولكن الشعور بأنها ربما كانت تحلم والذي كان يساورها طيلة المساء قد اشتد الآن بعد أن انتهيا من تناول الحلوى، وسألها: «أتريدين قهوة؟» وبدا لناظريها في هذه الغرفة الصغيرة، أكبر حجماً وأشد سمرة. وكانت عيناه الزرقاوان النفاذتان تبدوان شائنتين في وجهه الداكن، ومرة أخرى شعرت نحوه بافتتان قوي عنيف مما أسرع بدقات قلبها.

وقالت فجأة وهي تنهض واقفة لتسير نحو المدفأة: «كلا. كلا، أشكرك فأنا يجب أن أذهب في الحقيقة.»

فقال بلهجة لاذعة: «ولماذا؟ كنت أظن أننا نمضي وقتاً رائعاً.» وكانت السخرية تنطق من كلماته.

وهنا، شعرت بثورة فقدت معها أعصابها، فقالت بعنف: «لا أدري ما هو قصدك من كل هذا؟ إن جو فلاندرز الآن يعلم ما فعلته، وربما قد خسرت الآن عملي وبالتالي شقتي، دع عنك ثقتهم بي. بينما أنت هنا جالس دون أن يمسك شيء، أليس كذلك؟ انني أنا من سيكون كبش المحرقة.»

فقال بارتياب وهو ينظر إلى وجهها المتضرج: «أنت كبش المحرقة؟ لا أصدق أنني أسمع هذا. هل عندك فكرة

عما فعلته هذه الليلة؟ أيتها المرأة الشابة؟ في وسط المؤتمر الصحفي؟ مؤتمر صحفي؟» وكرر هذا ثائراً وهو يتابع: «لقد اتهمتني بالإجرام والاحتيال، ليس ثمة صحافي في لندن ستفوته مثل هذه الخبطة الصحفية، وأنا لا أشك في أن بعضاً منهم استطاع أن يظفر بصورة حلوة ليدك ملتصقة بوجهي كالقشدة على الكعك، إنك تستحقين كل ما قد ينالك من جو فلاندرز. وإن تخطيطك لعمل مثل هذا...»

فقاطعته ساخطة: «إنني لم أخطط لهذا. لقد كنت مع جو في ردهة الفندق نتناول القهوة، إذ كان لدينا موعد مع المدير للقيام ببعض الاعلانات. فرأيتك داخلاً، فدفعتني رؤيتك إلى ذلك.»

وأغمض عينيه لحظة وهو يشتم بطلاقة بصوت منخفض، ثم قال: «لا أدري إذا كان ما تقولينه يجعل الأمور أسوأ أو أفضل. ألم تقفي لحظة لتفكري في ما قد يحصل نتيجة لذلك؟»

فنظرت في العينين الزرقاوين مباشرة وهي تقول: «كلا. ولكن لو فعلت ذلك لما عدت عن نيتي تلك.»

فاسود وجهه من الغضب وهو يسألها: «أحقاً؟ انك في الواقع في حاجة إلى جلد بالسياط يعيدك إلى رشدك، أيتها السيدة الشابة.»

فقالت غاضبة: «حاول أن تلمسني مرة أخرى فترى ما يكون مني. أفهمت؟»

فهز رأسه قائلاً: «إن كبرياءك زائدة عن اللزوم.»

فقالت بعنف وهي تقبض يديها: «وماذا كنت تتوقع، لقد

www.lilas.com/vb3

كان أبي، وليس أحد المعارف. ماذا سيكون شعورك لو ان أحداً عامل أباك هذه المعاملة؟»

فقال بجفاء: «كالإجرام، ولكن كل شيء ما يزال الآن مجرّد افتراض، أليس كذلك؟ ليس لدي شيء ثابت الآن ويبدو لي انك فسّرت الأمور حسب اجتهادك. إنك غير متأكدة تماماً مما حدث على الصعيد العملي. وأكرر أن فعلتك هذه، لا تُنسى.»

فواجهته قائلة بلهجة متصلبة: «إن ما أعرفه هو فوق الكفاية. وأنا أريد أن أذهب الآن.»

فوقف ببطء قريب من الحذر وهو يقول: «حسناً، حسناً.» ومرة أخرى ساورها شعور بأن في تحركه صعوبة بينما كان هو يتابع قائلاً: «إنني في انتظار مكالمة هاتفية خلال نصف ساعة. ألا تريدين أن تبقي هنا لمعرفة ما سيأتي؟»

فقالت ببرود: «كلا، لا أريد. فأنا أعلم أن الحق معي، يا سيد ستيل وأنا أيضاً أعلم ما ستكشف عنه استعلاماتك.»

فقال متهكماً: «هل تصدقينني إذا قلت لك إنني اكتفيت هذه الليلة من فتنتك المميزة.»

فقالت بلهجة لاذعة وعيناها تقدحان شرراً: «ولماذا تغير نهج حياتك فتكون صادقاً الآن؟»

فأجاب: «إنني السبب في جعلك تقولين لي مثل هذا الكلام. إنك لا تدعين فرصة تفوتك؟ عليّ أن أتذكر ذلك في المستقبل.»

فسألته ببرود ساخر: «المستقبل؟ لا أظن طريقينا سيتلاقيان مرة أخرى، ان نمضي حياتنا غير متماثلين أليس كذلك؟»

فأجاب ببرود قاتل: «إنك لن تفلتي مني بهذه السهولة. أنت مخطئة يا آنسة غوردون وسأبرهن لك على ذلك، وعندما يثبت انك اقترفت خطأ كبيراً...»

فقالت بحزم: «هذا لن يكون. لقد سبق وأخبرتك عما حدث في الماضي، وما زلت غير متأكدة من تفهمك للوضع بأية حال. ولا يهمني اقتناعك بما قلته لك وأنا متيقنة مما حدث. والآن أريد أن أذهب.»

فقال: «كما تشائين.» وضغط على زر ذهبي صغير بجانب المدفأة، وبعد ثوان أطلت الخادمة الصغيرة برأسها من الباب.

وتساءلت جاني متهكمة، وهي تراه يلقي بأوامره إلى الفتاة الصغيرة، تساءلت عما إذا كان لا يقوم بعمل بنفسه مطلقاً. فالأزرار في كل مكان، والأوامر تلقى هنا وهناك، وكل شخص يقفز بانتباه. وكان وجهها ينطق بهذه الأفكار عندما استدار ينظر إليها مكتسحاً بنظراته النفاثة ملامحها التي سارعت هي في تغييرها إلى شكل مقبول.

وقال: «ما أشد ما ألمح من الكراهية في وجهك هذا.» وكان صوته عميقاً رقيقاً، ولسبب ما شعرت هي بالنار تسري في أوصالها وهي تراه يقترب منها، بينما كان يحدّق في أعماق عينيها البنيتين، وهو يقول ساخراً ببرود: «إنك تعلمين أن هذا شيء سيء جداً بالنسبة لك.»

فأجابت وهي تبعد رأسها عنه بحدة: «هذا ما سبق وقلته لي مرة. كنت فهمت انك أمرت بسيارة تأخذني إلى بيتي، وإلا فبإمكاني أن أطلب سيارة أجرة لذلك.»

فقال: «أظن ان بامكانك القيام بأي شيء.» كان في

www.liilas.com/vb3

صوته معنى لم تستطع فهمه تماماً. وتابع هو قائلاً: «على كل حال فإنني أفضل أن آخذك إلى بيتك بنفسي إذ انني أنا الذي سبق وأحضرتك إلى هنا؟»

فسألته بذعر واضح: «هل ستصحبني إلى البيت؟»

ولاح شبح ابتسامة على ذلك الوجه الجليدي للحظة واحدة، وهو يقول: «منذ أيام، قلت لأحد زملائي أنني أتمنى أن أقابل فتاة لا يدير رأسها ذكر اسم ستيل.» وكانت السخرية واضحة في كلامه وهو يعود إلى مكانه بجانب المدفأة، ليتابع قائلاً: «كنت قد نسيت ما يقال من أننا يجب أن ننتبه إلى ما نتمناه، أحياناً إذ ربما يتحقق.»

فحدّقت فيه دون أن تقول شيئاً... وبعد، فماذا كان بإمكانها أن تقول؟ وفي خلال دقيقة واحدة كانت الخادمة تعود لتعلن أن السيارة بالانتظار عند المدخل.

وعندما تركا المنزل الجميل الدافىء إلى جو الليل البارد في الخارج، أخذت الريح تلفح وجه جاني مصحوبة برقائق من الثلج، وعندما أصبحت في السيارة تناولت معطفها من حيث كان في السيارة مع حقيبة يدها، لترتديه مسرورة.

وسألها وهو يجلس بجانبها بينما عيناه تراقبانها: «هل تشعرين بالبرد؟»

فأجابت: «قليلاً.» وألقت بنظرها إلى الخارج مفتشة عن موضوع غير شخصي تتحدث فيه ثم قالت: «أين نحن؟»

فأجاب ببرود: «في ميدل سيكس، حيث السفر سهل منها ومع ذلك تحتفظ بالطابع الريفي بمزارعها وأكواخها المسقوفة بالقش التي بامكانها أن تنافس أية قرية في يوركشاير.»

فسألته ساخرة وهي ما زالت تجذب أطراف معطفها حولها: «أتراك، في أعماقك صبياً ريفياً؟»

فأجاب بوجه خال من التعبير: «هل تجدين من الصعب تصديق هذا؟ وهل كنت تتصورينني نشأت في المدن الشمالية حيث المباني تمتد أميالاً وحيث القطارات تحت الأرض وما أشبه؟ أم ربما في قلب لندن مثل مناطق تشلسي أو وست إند؟»

فأجابت بجفاء: «أظن الأماكن الأخيرة التي ذكرتها أكثر ملاءمة لك، كما انني كنت أظن ان القرى لا يهمك فيها إلا قدر ما تنتجه.»

فقال وعيناه الزرقاوان بصلابة الماس: «أهذا ما كنت تظنينه؟ من المؤسف ان تقترن جاذبيتك هذه بمثل هذا القدر من الجهل.»

فقالت تهاجمه مشبهة نفسها بهرة صغيرة تواجه نمراً مفترساً: «كيف تجرؤ على هذا القول؟»

فأجاب بصوت لم تكن رقته لتتناسب مع توتر فكه الفولاذي: «كيف أجرؤ؟ إن جميع معلوماتك خاطئة، يا آنسة غوردون. إنه أنا الذي كان يجب أن أوجه هذا السؤال إليك. فأنت لا تعرفين عني شيئاً، لا شيء مطلقاً عدا عن تلك الفكرة الغامضة عن مسؤوليتي في التسبب بشيء من الأسى لأبيك...»

فصرخت فيه بصوت ثاقب: «أسى؟» وأجفل هو قليلاً لهذا ولكنه تابع يقول وكأنها لم تعترض بشيء: «بينما أنت تملأك الكراهية رافضة أن تستمعي إلى أي منطق وتتصرفين كطفلة وليس كإمرأة سنها...» وتبادلا النظرات وقد أقفلت

www.liilas.com/vb3

هي فمها بعناد. ولكنه تابع قوله سائلاً بالحاح: «ثلاثة وعشرون، أربعة وعشرون؟»

فردت عليه بقوة: «أربعة وعشرون وإن يكن هذا ليس من شأنك، وماذا تقول أنت عن تصرفاتك؟»

فرفع حاجبيه بغطرسة كادت لأجلها تهم بضربه وقال: «تصرفاتي؟ إنني حسب ما أنكر أجلستك في سيارتي عندما كنت دون معطف ولا قبعة، وكذلك قدمت إليك وجبة كاملة. هل تعدّين ذلك إثماً؟»

فأجابت بغضب وقد شعرت بالحرارة تلهب وجنتيها: «إنني لم أقصد هذا. إنما أعني عندما...» وسكتت فجأة ثم أردفت: «عندما أمسكتني بخشونة.»

فهتف وقد بدت عليه الحيرة: «أمسكتك بخشونة؟ إن رأسي ما زال يدور بسبب لمستي ليدك يا آنسة، فمتى كنت خشناً معك؟»

فأجابت بفتور: «عندما كنا جالسين في غرفة جلوسك.»

«آه...» أطلق هذه الآهة بلهجة حافلة بالمعاني، فرفعت وجهها بحدة لتراه ينظر إليها ساخراً، وهو يقول: «هل ستقولين الآن انك لم تكوني مرتاحة؟»

فنظرت إليه قائلة: «كلا، إنني لم أكن كذلك. كنت أشعر بالغثيان التام. لم يعاملني قط أحد من قبل مثل هذه المعاملة.»

فقال وهو يميل بجلسته إلى الخلف وقد عقد ذراعيه فوق صدره وقد ضاقت عيناه النفاذتان: «أحقاً؟» وأدركت هي فجأة أنه يلاعبها كما تلاعب القطة الفارة الصغيرة. وتابع يقول: «إذا كان الرجال أعقل من أن يتعاملوا معك، فما زال هناك أمل في هذا الكون.»

فقالت ثائرة: «إنني لا أعني ما تفكر فيه، وأنت تعرف هذا، إنما عنيت...» وسكتت. ماذا تراها كانت تعني؟ وتابعت تقول: «إنك أرغمتني...»

فقاطعها قائلاً وهو يبتسم: «ماذا؟ ربما كان هذا في اللحظات الأولى، ولكن بعد ذلك...» وكسا البرود وجهه وهو يتابع: «تنكري... فأنا كنت هناك...»

فقالت بضعف: «يا لك من وقح، إنني لن أتحدث عن أي شيء معك بعد الآن.» وأغمضت عينيها وهي تجذب أطراف معطفها حولها.

ومضت فترة صمت قال بعدها: «لشد ما كانت بهجتي عارمة تلك اللحظة. لقد كانت سعادة حقيقية.» وبعد أن اجتازت بهما السيارة مسافة، قال: «ألا تتكرمين علينا بعنوانك؟»

ففتحت عينيها بسرعة ونظرت من النافذة وهي تقول: «آه، يمكنك أن تنزلني في أي مكان.»

وبدا لها العالم خارج هذه السيارة المرفهة، بعيداً عنها ملايين الأميال.

وقال ببرود: «حسناً، وتظنين أنني سأوافقك على ذلك. إن جوابك ذاك يتمشى مع كل الهراء الذي تحدثت به طيلة الليلة، إذ تريدين أن تنزلي هنا وأنت ترتدين هذا الثوب الصوفي الرقيق والمعطف. والآن إليّ بالعنوان من فضلك.»

فسكتت طويلاً، ثم قالت: «أباردين غاردنز.»

فسألها: «والرقم؟»

فأجابت: «إثنان وستون.» لقد كان شارع أباردين

www.liilas.com/vb3

غاردنز بعيداً عن المكان الذي تقطنه. ولكنها لم تشأ أن تخبره بعنوانها الحقيقي. لم تكن تعرف السبب في ذلك. ولكنها كانت مقتنعة بانه كلما قلَّ ما يعرفه عنها كان ذلك أفضل. لقد كان يشكل تهديداً لشعورها بالأمن والاستقرار. وليس بالنسبة للماضي فقط. لقد اعتادت في عملها كسكرتيرة لجو فلاندرز، أن تتعامل مع كل أنواع الرجال وكان بامكانها أن توقف من قد يحاول تعدي حدوده معها، عند حده. ولكن هذا الرجل... واختلست نظرة إليه في الضوء المنير من مصابيح الشارع متأملة فكه المربع القوي وجسمه الرائع. كان هذا الرجل شيئاً جديداً غير عادي.

وبعد أن أعطى عنوانها إلى السائق بينز، أعاد الحاجز الزجاجي بينهما وبين السائق باحكام، ليعودا إلى جوهما الخاص المزعج مرة أخرى، وسألها: «هل تسكنين وحدك؟» واجفلت لحظة لسؤاله هذا وأجابت راجية أن لا يكون قد لاحظ ذلك: «نعم.»

فعاد يسألها: «أهي شقة بغرفة واحدة؟»

فأجابت وهي تنظر من النافذة هرباً من نظرة عينيه الحادة: «نعم. إنها في منزل يملكه جو. وهو ملحق بالوظيفة.»

فأومأ برأسه ببطء وهو يقول: «فهمت. ومن هنا خسارتك لوظيفتك، يلحقها خسارتك لشقتك. هل تعملين عنده منذ مدة طويلة؟»

فأجابت: «منذ تركت الجامعة منذ أكثر من سنتين.» وحدقت في وجهه وهي تتابع قائلة: «لقد مات أبي بعد اسبوعين من نيلي شهادتي.»

فقال: «فهمت.» وتساءلت هي بمرارة عما إذا كان قد فهم

حقاً... ومن أين له أن يفهم؟ فقد كانت تعد الأيام لكي تنتهي من الجامعة وتستأجر شقة صغيرة لهما هما الاثنين، لتعتني به وتدلله قليلاً، ولكنه...

«ها قد وصلنا إلى أباردين غاردنز. وابتدأت السيارة تسير ببطء بين المنازل الصغيرة. وتنفست جاني بارتياح. وتابع هو يقول: «إثنان وستون؟»

فابتسمت ببرود وهي تجيب: «نعم، إن باستطاعتك الآن أن تتخلص مني، أليس كذلك؟»

فأجاب: «لحظة واحدة يا آنسة غوردون، لحظة واحدة.» ذلك أنها كانت قد جلست على حافة المقعد متأهبة للحظة يمكنها فيها الهرب. يا لها من ليلة، يا لها من ليلة

وأوقف بينز السيارة دون أن يطفىء المحرك، وأنزل الحاجز الزجاجي وهو يقول: «آسف يا سيدي. إن أرقام الشارع تنتهي عند الرقم ستين فقط.»

فأجاب كين بضيق: «هذا غير ممكن.» ولكن لمحة منه إلى وجهها جعلته يعود فيقول: «انتظر لحظة...» واستدار إليها بنظرات كالثلج وهو يقول: «هذا جميل... جميل جداً في الحقيقة، والآن هاتي العنوان الحقيقي، فأنا أكبر من أن تجوز عليّ مثل هذه الألعاب الصبيانية، يا آنسة غوردون وغلطة أخرى منك مثل هذه، تجعلك تعرفين مذاق الضرب على قفاك، أفهمت؟»

فحملقت فيه ثائرة وهي تجيب: «إنك لا تجرؤ.»

فقال: «أتراهنين؟» ولم يكن ثمة مزاح في وجهه وإنما غضب عنيف وهو يتابع: «يلزمك الانضباط يا فتاتي، والآن هاتي العنوان.»

www.liilas.com/vb3

فقالت بعناد: «يمكنني أن أسير إلى بيتي من هنا.» ثم حاولت القفز في الوقت الذي ضرب هو فيه المقعد بقبضته وهو يزمجر وقد قدحت عيناه شرراً: «صبراً، فأنا لن أدخل معك إلى بيتك، يا آنسة غوردون، بل أريد أن أوصلك إلى باب منزلك، وكلما أسرعنا بذلك كان هذا أفضل كما أرى. إنك حقاً أكثر النساء اللاتي تعاملت معهن، إزعاجاً وذلك منذ زمن طويل. وأنا لا أريد أن أطيل من أمد هذه المواجهة المؤلمة بيننا أكثر من اللازم. والآن، إليّ بعنوانك.»

وكان بامكانها أن ترى بينز يجلس متصلباً أمامهما وهو يسمع كل كلمة تدور، وعندما فتحت فمها لتناقشه عادت فادركت عدم جدوى ذلك. فهو سيستمر في الالحاح إلى أن يحصل على العنوان وكانت تشعر أن إرادته أقوى من إرادتها رغم كرهها الاعتراف بذلك.

وقالت بفتور وقد توهجت وجنتاها: «إنه على بعد شارعين من هنا... فيلدون كورت الرقم إثنان وستون.»

فقال متهكماً: «هل أنت واثقة؟»

فأومأت بسرعة قائلة: «نعم.» وألقى هو عليها نظرة شاملة، قبل أن يقول لبينز: «هل سمعت العنوان؟»

فأجاب هذا: «نعم يا سيدي.»

فقال: «سر في طريقك إذن، فكلما أسرعنا في التخلص من هذه كان ذلك أفضل.» ورمق الزجاج الذي بينه وبين السائق بنظرة كانت من العنف بحيث ما كانت لتدهش لو أنها حطمت الزجاج وتناثرت شظاياه في كل مكان.

وبعد ذلك بدقيقة واحدة، كانوا يسيرون بمحاذاة صف طويل من المنازل حيث كان منزل جاني بينها. وما أن فتح

بينز باب السيارة، حتى انطلقت هي منها كالرصاصة.

وعندما تبعها كين إلى الشارع، مدت إليه يدها وقد التهبت عيناها، وهي تقول: «الوداع، لا يمكنني أن أقول إن اجتماعي بك كان مناسبة سارة.»

فقال: «وكذلك بالنسبة إليّ.» وأمسك يدها الصغيرة بيده السمراء الضخمة وهو يتابع قائلاً بلهجة تحوي التهديد: «وأرجو لمصلحتك، أن لا تظهر عناوين صحف صباح الغد، بالشكل الذي أتوقعه.»

وكانت تتوقع منه أن يهز يدها مصافحاً، ولكنها وقفت متصلبة الجسم، وهي تراه يرفع يدها تلك إلى شفتيه، وذلك رغم توتر الأعصاب الذي شعرت به، وعندما رفع عينيه الزرقاوين اللامعتين إلى عينيها البنيتين المصعوقتين، رأت أنه لم يكن يبتسم.

وقال دون أن يظهر على وجهه أي تعبير: «الوداع، يا جاني.»

وأجابت: «الوداع يا سيد ستيل.» ولم يكن صوتها كما كانت تريده من البرود. وشعرت لهذا، بالمذلة وهي تتحسس مكان المفتاح من قفل باب المبنى، وقد سادها الإرتباك. ودخلت، ثم أغلقت الباب دون أن تنظر إلى الخلف. استندت إلى الجدار البارد لحظة قبل أن تقفز الدرجات الصاعدة إلى شقتها، وعندما حاولت أن تفتح الباب، سقط المفتاح من يدها مرتين قبل أن تدخل أخيراً، صافقة الباب خلفها وقد شعرت بالأمان.

www.lilas.com/vb3

الفصل الثالث

وعندما فتحت جاني عينيها، صباح السبت، ساورها شعور بتغيير مفاجيء سبب لها عدم الارتياح. وكانت قد أمضت قسماً كبيراً من الليل، أخذ اثناءه، ذهنها المتعب يعيد إلى ذاكرتها كل كلمة وكل إشارة تبادلاها، إلى أن شعرت بأنها تكاد تجن. لقد كانت مسرورة لمواجهتها له. وكانت تحدث نفسها بذلك مرة بعد مرة وقد تملكتها الوحشة. ان كل ما كانت تريده الآن، هو أن تنتهي من هذه المسألة برمتها، ولكن ذلك لم يكن في إمكانها. وضربت وسادتها بيدها وقد ساورها اليأس، قبل أن تسقط نائمة عند تباشير الفجر.

وعندما تصاعد رنين جرس الهاتف، وهي تجلس واجمة ترشف فنجاناً من القهوة، شعرت بقلبها يثب بين أضلعها. وتمتمت غاضبة تعنف نفسها لهذا الغباء وهي تخطو نحو الهاتف والأفكار تراودها... كلا، لا يمكن أن تكون هذه المكالمة منه... طبعاً ليس هو... كلا...

وجاءها صوت جو فلاندرز بأشد ما يمكن من الثورة وهو يقول: «جاني؟ هل رأيت صحف الصباح؟ ما الذي تملكك لتفعلي هذا، يا فتاة؟»

وغاص قلبها بين أضلعها وهي تجيب بصوت ضعيف: «الصحف؟ هل هي سيئة إلى هذا الحد؟»

فأجابها بعنف: «وأسوأ مما تتصورين. هل ستوضحين لي كل شيء؟»

فتنفست بعمق وهي تقول: «طبعاً، إنها قصة طويلة.»

فرد عليها بجفاء: «لا بد أنها كذلك. ويدهشني انك مازلت موجودة بيننا بعد الذي حدث، فتخبريننا بها.»

فقالت بضعف: «إن القضية تنطبق عليها جملة (ظروف مخففة) يا جو. وأنا آسفة جداً لكوني تركتك بهذا الشكل.»

فقال جو بشيء من الهدوء: «لقد كنت قلقاً عليك إلى أقصى حد. ولم أكن متأكداً من أنني كنت على صواب في تسليمه أشياءك. ولكنه بدا مصراً على ذلك.»

فقالت بجفاء: «يمكنني تصور ذلك. اسمع، هل من الممكن ارجاء شرحي للقصة إلى أن اراك صباح الاثنين؟ وصدقني انني آسفة، يا جو. وأرجوك أن لا تحذف اسمي من العمل.»

فأجاب بهدوء: «لن أفعل ذلك. وسأراك في المكتب إذن، ولكن إذا شعرت بحاجة إليّ قبل ذلك فرقم هاتفي عندك.»

فقالت: «أعلم ذلك، شكراً.»

ومضت العطلة الأسبوعية بطيئة برغم ليلة السبت ودعوة للغداء يوم الأحد في بيت صديقة من عهد الدراسة. وكان سرورها، صبيحة الاثنين، لوصولها إلى مكتب جو الصاخب ذي الجو المحموم بجلبة الاعلانات، كان سرورها ذاك لا يحد، رغم ما ينتظرها من عقاب.

وحدثت جو باختصار عن قصتها قبل ان يبدأ عمل اليوم، وشعرت بالارتياح وهي تراه يعلق على القصة هذه بتحفظ رافعاً حاجبيه وهو يهز رأسه الذي خطه الشيب. ومر ذلك النهار كالعادة. ولكن، حتى في أشد اللحظات انشغالاً، كان هناك جزء خفي من ذهنها يفكر في رجل أسمر البشرة فارع الطول مما كان يثير حنقها. هل يا ترى سيتصل بها مرة

www.liilas.com/vb3

أخرى؟ وهذه الفكرة التي كانت تحتل ذهنها طيلة العطلة الأسبوعية، قد انطلقت من عقالها أثناء عودتها إلى منزلها، وتمنت أن لا يفعل. ولكنه لا بد أن يفعل ذلك بعد تلك العناوين التي ظهرت في الصحف.

وكانت تحضر عشاءها ذلك المساء، عندما داخلها الفزع لسماعها نقرات على الباب. وأخذت تهدىء من مشاعرها. لا بد أنها جارتها تأتي لتطلب المفتاح الاحتياطي لشقتها هي والذي اعتادت أن تستودعها إياه بعد اذ اعتادت ان تجد نفسها خارجها وقد انغلق الباب والمفتاح في الداخل.

ولكن، عندما فتحت الباب، ورفعت انظارها اكثر فاكثر لتتلاقى بأنظار كين ستيل الباردة الساخرة، عند ذلك أدركت أنها ليست مدهوشة مطلقاً. فقد كان يساورها شعور بأنه لن يدع الأمور تستمر طويلاً، فهو ليس من ذلك النوع من الرجال. انه يريد أن يضع النقاط على الحروف على النحو الذي يريده.

وقالت بحذر بينما كان قلبها يخفق بعنف: «لقد كنت اتوقع قدومك. فقد رأيت الصحف أنا أيضاً. هل أنت بمفردك؟» ذلك أنها كانت شبه متوقعة أن ترى محامياً خلفه.

قال وهو يومىء برأسه إلى الداخل: «أتسمحين لي بالدخول؟»

فأجابت: «طبعاً.» وتساءلت، كيف ياترى سيكون شعوره إزاء شقتها الصغيرة هذه؟ وأشارت له نحو غرفة جلوسها الضيقة. وكاد هو يملأ الغرفة بجسمه الضخم حيث وقف ينتظرها. واستجمعت هي شجاعتها لتنظر في وجهه وهي تشتم الرائحة المألوفة للكولونيا بعد الحلاقة التي

يستعملها، وبدا أمامها رائعاً بوجهه الخشن المغضن. وحاولت أن تنبذ هذه التصورات من ذهنها. لم تكن تريد أن تفكر فيه على هذا النحو في الوقت الذي كانت تعرف فيه أن حضوره إلى بيتها ربما كان سببه توقيع عقوبة ما عليها.

وقال لها، حالما تلاقت أنظارهما: «لقد جئت لأقول لك إنك كنت على حق، جزئياً. وأنا أعترف بأن ثمة أخطاء اقترفتها مؤسسة ستيل أثناء التعامل مع أبيك.»

فقالت: «أوه.» ولم تستطع أن تنطق بغير ذلك، فقد كان هذا آخر ما توقعت أن تسمعه.

وتابع هو يقول بتوتر: «ولكن هذا لا يبرر فعلتك تلك مساء الجمعة الماضية، والتي كانت نتيجة هذه الأخطاء التي ستشغلني مدة طويلة جداً.»

فقالت متهكمة: «حسناً، أرجو المعذرة. ولكنك لا شك ستفهم عندما ترى أن هذه التفاصيل الصغيرة لا تهمني كثيراً بالنسبة لكونك موجوداً على الأقل، لكي تتصرف معهم، بعكس والدي.» وأنهت حديثها هذا وهي تحدق فيه غاضبة.

فسألها ببرود وهو يرى نظراتها تلك: «اتدركين أن ما جرى كان قانونياً تماماً؟»

فردت عليه: «قانونياً؟ وهل يجعل هذا من الأمور صواباً؟» وكان الاشمئزاز يبدو عليها بجلاء.

فأجاب بحدة: «كلا بالطبع، إنما أقصد بخصوص المستقبل.»

فجلست على مقعد بعد أن شعرت بساقيها تهتزان، وهي تقول: «ما هذه اللهجة العنيفة التي تتحدث بها؟ إنك لست في اجتماع عمل، فهلا تكلمت بلهجة عادية؟»

www.liilas.com/vb3

فحدق فيها لحظة طويلة، ثم أطلق نفساً طويلاً وهو يقول: «إن اعصابي متوترة، فالأمر غير عادي بالنسبة إليّ، فانا لم أتعود الاعتراف بأننا كنا على خطأ.»

فقالت وقد خف العنف من لهجتها: «إنني اصدقك الآن في هذا.» ولكن، أليس من الممكن أن يكون هذا هو قصده من وراء ما قال؟ إنه ثري كبير اعتاد على جذب الآخرين بمناوراته، فإلى أي حد بإمكانها ان تواجه عقلاً كهذا؟ إنها لا تختلف في ذلك عن أبيها.

وفجأة، أمسك بذقنها بقوة، يرفع وجهها إليه، محدقاً في أعماق عينيها، ثم هز رأسه ببطء قائلاً: «إنك لا تقبلين التنازل انشاً واحداً، أليس كذلك؟ إن عينيك كبيرتان قاتمتان ومليئتان بالكراهية. كنت أظن النساء هن الجنس الأضعف.»

كانت شفتاها جافتين بحيث لم تستطع أن تنطق من خلالهما بكلمة.

وسألته بلهجة متمردة وهي تتملص من قبضته: «ما الذي ستقوم به. إنني أعرف أنك غاضب مني، فقد كان ما كتبته الصحف بنفس السوء الذي سبق لك أن توقعت. فما هي إذن، خطوتك التالية؟»

وكانت، أثناء حديثها، قد تراجعت خطوة إلى الوراء شاعرة بأمان اكثر لابتعادها عنه، وهي تتابع قائلة: «أريد أن أعرف الآن، إذا لم يكن لديك مانع. إنني لا أحب لعبة الهر والفأر التي يبدو أنها تعجبك.»

فقال بعنف: «وهل هذا صحيح؟» وبدا عليه أنه يحاول تمالك اعصابه. وانبسطت أساريره وهو يعاود النظر إليها

قائلاً: «إن المسألة هي أنه، كما أرى، قد وقعت غلطة واضحة من الناحية الأخلاقية. هل تفهمين؟»

فقالت بفتور: «آه، نعم، لقد فهمت طبعاً.»

فقال: «لمعلوماتك الخاصة، نحن لا نتعامل في القضايا بهذا الشكل، ولكن البعض يكون أحياناً متحمساً اكثر من اللازم.»

فردت على كلامه ببرود: «متحمساً اكثر من اللازم؟ حسناً، إذا كنت تعتبر ان الضغط على البنوك لرفض تمديد فترة الدين، ثم التسبب في إلغاء العقود قبل البدء بها، إذا كنت تعتبر ذلك حماساً، فإن اخلاقك من السوء اكثر مما أتصور. لقد أفقدت مؤسستك أبي عمله بفعل القانون طبعاً.» ونطقت بالجملة الأخيرة بتهكم وهي تتابع: «إن المافيا نفسها لا تفعل اكثر من ذلك.»

فقال بشدة: «كان في الأمر شيء من المبالغة.»

فسألته فجأة: «هل تعرف من كان مسؤولاً في ذلك الحين؟»

فأجاب بإشارة غامضة من يده: «ربما.»

فسألته غاضبة: «ربما؟ وما الذي ستفعله إزاء ذلك؟»

فالقى نظرة من عينيه الزرقاوين على وجهها المتوهج وهو يقول بجمود: «دعي ذلك لي، هل تحبين أن نتناقش في مسألة مصيرك أثناء تناولنا العشاء؟»

فحدقت فيه بحيرة بالغة وهي تقول: «ماذا؟ أتريدني أن أتناول العشاء معك؟»

فقال بلطف: «وأي خطأ في هذا؟»

فأجابت: «إنني لن أتناول عشاء آخر معك ولو كنت آخر

www.lilas.com/vb3

رجل في العالم. فأنا غير متأكدة على الاطلاق، من أنك لم تكن رأس الحربة منذ البداية، حتى ولو لم تكن كذلك، فأنا لا أصدق أنك لم تكن على علم بشيء من الأمر في ذلك الوقت، ويمكنك ان تخبرني بمصيري الآن.»

فقال بصوت بلغ من البرود، رغم رقته الزائدة، ما أرسل القشعريرة في جسدها: «هل تعتبرينني، بكلامك هذا كاذباً؟»

فقالت بحزم: «نعم، أظن هذا ما كنت أعنيه، وأنا شاكرة لك قدومك إلى هنا.»

فقاطعها قائلاً: «حسناً، إنها بداية على الأقل.» وبخطوة واحدة أصبح بجانبها حيث وقف يحدق فيها وقد بدا لها، في معطفه القاتم، أكثر طولاً، وهو يتابع قائلاً: «ما الذي علي ان افعل لكي أجعل مخك الصغير هذا يعمل؟» وأخذت عيناه تجولان فوق وجهها ببطء، بينما تنفست هي بعمق، شاعرة بالفزع من رباطة جأشه الرهيبة، والسلطة العنيفة التي كانت تبدو في كل نظرة منه وكل حركة، والتي يرافقها على الدوام طيف الهيمنة. وكان هو يسير بحيوية فائقة دون أن يكون لديها فكرة عما سيحدث.

وقالت له: «ولماذا تكلف نفسك هذا العناء، يا سيد ستيل؟ ما أنا إلا فتاة عادية كأي من فتياتك العاملات ولا شيء غير عادي بالنسبة إليّ.»

وتحولت الغطرسة الباردة فيه إلى عنف لا يصدق وهو يقول: «هذا غير صحيح.»

فهزت كتفيها مظهرة عدم الاهتمام وهي تقول: «إن اكثر الناس لا يوافقونك على هذا.»

فقال: «إذن، فإن اكثر الناس هم حمقى.» وكان من المستحيل سبر غوره وهو يقول ذلك. وحدقت هي فيه لحظة، بصمت محاولة ان تفهم ما في اعماقه.

لقد سبق وسألت جو، أثناء تناولها سندويتش الغداء على مكتبها، عن كين ستيل ومن أي نوعية هو، وتذكرت نظرة الاهتمام الحادة النافذة التي بدت على جو وهو يقول: «إنه ليس من نوعيتك أنت. مع أنه يدهشني أن أراه قد تعامل مع أمرك بهذا المقدار الضئيل الذي ذكرته لي. فهذا ليس من عادته في التصرف في الأمور. فهو خشن جداً وعديم الشفقة، لا يساوره أي ندم أو ارتياب في نفسه، ولكن الذي كنت اعلمه عنه أنه مستقيم.»

وضاقت عينا مخدومها وهو ينظر إليها محذراً ويتابع قائلاً: «لا تهتمي كثيراً به، يا جاني، واكرر أنه ليس من نوعيتك. إذ أنه عدا عن ثروته وسيطرته، فإن للرجل شهية قوية، هل فهمت ما أعني؟»

فسألته بهدوء: «هل تعني النساء؟»

فأجاب بجفاء: «كل النساء. وهن أيضاً يُعجبن به. إنني لم أره قط مرتين مع نفس المرأة.»

فقالت وهي تلقي نظرة على الأوراق بين يديها، ملقية السندويتش غير مستساغ الطعم، جانباً، وهي تقول: «آه... كنت أتساءل فقط.»

فقال منبهاً بشدة: «دعي عنك التساؤل هذا.» وقد انقطع ذلك الحديث عند ذاك. والآن، وهي تحدق في ملامحه الفولاذية، تساءلت عن السبب. إنها لم تعرفه، ولم تشأ ان تعرفه، ولا يهمها سواء جر خلفه خمس نساء أم خمسين.

www.liilas.com/vb3

وابتدأت تقول مرة أخرى: «حسناً، إنني شاكرة لك حضورك، يا سيد ستيل...»

ولكنه قاطعها قائلاً: «لقد سبق وقلت هذا الكلام من قبل.»

واستحال هنا صوته غاية في الرقة وهو يقول: «إنك تدركين، طبعاً، أن امامنا حديثاً طويلاً، هذا بجانب العقاب الذي عليك ان تؤديه.»

فنظرت إليه قائلة وهي تتراجع خطوتين إلى الخلف: «إن هذا لا يعني أنني أدرك ذلك. ليس في استطاعتي أن أفكر في شيء.»

فقال وهو يركز أنظاره عليها: «حسناً، فلنبدأ بذكر المبلغ الذي كان مصنع أبيك يساويه. هل عندك فكرة عنه؟»

فأجابت ببطء: «كلا في الحقيقة. إن الأوراق هي عندي في مكان ما، بالطبع، ولكنني لم أطالعها منذ وفاة أبي. لقد لاحظت، فقط، أنه شيء قد انتهى امره. ولكنني أظن أنه كان مسروراً لأنه لم يكن معرضاً لإشهار افلاسه. لقد ساءت الأمور بشكل كبير لفترة من الوقت.» وهنا كانت عيناها مليئتين بالإتهام.

فقال بهدوء: «إن الموظفين عندي يعالجون الموضوع بواقعية. وبما أنك ابنته، فسيسلمونك المبلغ.»

فتوهج وجهها بعد أن أدركت إلى أين انتهى بها الحديث، وبان الذعر في عينيها وهما تقابلان أنظاره الباردة، وردت عليه بحدة: «إنني لا أريد أموالكم. إنني لم أفعل ما فعلته، لأجل المال. هل هذا ما ظننته أنت؟ لقد أردت أن أعلمك فقط، برأيي فيك، وهذا كل شيء. إنني لن استلم من نقودك قرشاً واحداً.»

فقال: «إذا كان المبلغ هو الثمن العادل للمصنع، فهو لا يخصني إذن، أليس كذلك؟ لقد كنا نتحدث عما كان أبوك يستحق.»

فقالت بعنف: «ولكن ليس بإمكانك أن تدفع له ما كان يستحقه. لقد فات الأوان لذلك. إنني لا أريد نقوداً. أريد أبي حياً ومعافى، ولكن هذا مستحيل.»

فقال: «إنني أعلم أن هذا الموضوع عاطفي، ولكن، أليس بإمكانك أن تكوني اكثر عقلانية؟» وبدا التوتر في صوته وهو يراها تحدق فيه بعينين ملتهبتين، وقال: «تذكري أنه أنت التي جعلتني موضع سخرية.»

فقالت بمرارة: «إن هذا لا يقاس بما كنت أتمنى فعله، وأنا لا أريد أموالك القذرة. ألا يمكنك ان تفهم هذا؟ إنك لا يمكن أن تتخلص من الشعور بالذنب بهذه الطريقة. إن عليك أن تعيش مع ما اقترفته يداك.»

فوضع يده على رأسه، واستدار غاضباً، ليسير نحو النافذة الصغيرة التي تشرف على الشارع المعتم، ثم قال: «لقد سبق وقلت لك إنني لم أفعل شيئاً.»

فقالت: «نعم. لقد قلت ذلك.» إنها لم تعرف، بالضبط، ما الذي كان يدفعها إلى التصرف بهذا الشكل... ولكنها كانت تعرف أن المسألة هي اكثر من مجرد حزنها القديم لأجل أبيها. ولكن عقلها رفض ان يحلل السبب. وقالت: «إنني أريدك أن ترحل الآن، يا سيد ستيل.»

فاستدار قائلاً: «بالتأكيد.» ولكنه، في حركته تلك، تعثر قليلاً وكأنما تلك الحركة افقدته توازنه. ومرة أخرى، لاحظت أنه سرعان ما استرد توازنه وهو يجتاز الغرفة وقد

www.liilas.com/vb3

اسود وجهه من الغضب، ليخرج إلى الردهة الصغيرة وهو يقول: «يا لك من فتاة تثير السخط، يا آنسة جاني غوردون.»

فقالت باستخفاف وقد نضح وجهها ازدراء: «أما أنا، فلن اخبرك برأيي فيك. ولكنه ليس بالحسن.»

وعلى الفور تحولت أنظاره إلى ذلك الشعر الأسود الحريري الذي يصل إلى كتفيها، والفم الأحمر الغاضب والعينين البنيتين الملتهبتين، وضاقت عيناه وهو يقول ساخراً: «إنك لست بحاجة إلى ذلك، وحتى لو اعتبرتني أسفل السافلين، فإنني سأظل أتصرف تبعاً لشخصيتي الحقيقية.»

وعندما أمسك معصميها النحيلين بيده الضخمة، أدركت مبلغ قوته الحقيقية التي يسيطر عليها جسمه الكبير كما أدركت أنه لم يفقد أعصابه وإنما كان يجعلها تدفع ثمن ما فعلت بكل دم بارد. وحاولت أن تقاومه، ولكنها، وقد سبق وشعرت بقوة ذراعيه من قبل، علمت أن محاولتها تلك هي دون جدوى. وقال لها: «إنك أكبر عدوة لنفسك. هل سبق لأحد أن أخبرك بذلك من قبل؟»

وبينما امتلأت غضباً لهذه الحرية التي يستعملها معها، كان ثمة شعور آخر يخيفها، يحتل مكانه. شعور جعل كل مقاومة أبدتها نحوه، تتلاشى. لقد كان رجلاً خبيراً بالنساء، يعرف كيف يخضعهن لإرادته.

وعندما أطلقها من بين يديه، تملكها شعور غريب بالدوار. ومضت لحظات قبل أن تتمكن من استعادة توازنها، لتبتعد عنه وهي تصرخ فيه بصوت خشن مرتجف: «إنني أكرهك.»

www.liilas.com/vb3

وعندما رفعت نظرها إلى وجهه، متوقعة أن ترى السخرية على ملامحه، خصوصاً للسهولة التي أمكنه بها التغلب على مقاومتها، إذا بوجهه الخشن الغامض جامداً لا ينطق بشيء وهو يجيبها قائلاً: «ربما هذا صحيح، وربما لا.»

فقالت: «بل هذا صحيح.» وتمنت لو أمكنها أن تريح نفسها بذرف الدموع التي كانت تختنق بها، ولكن كلا... لن يكون هذا أمامه، وعضت شفتها بشدة حتى شعرت بطعم الدم في فمها وهي تقول: «لا أريد أن أراك مرة أخرى في حياتي.»

فأجاب بتعجرف وهو يفتح الباب الخارجي: «لا يمكنني أن أعدك بذلك، وعليك أن تعيشي بالأمل، أليس كذلك؟»

وعندما أغلق الباب خلفه، قفزت إلى الباب لتدفع المزلاج في مكانه بقوة، بيدين مرتجفتين. إنه رجل حقير اسوأ كثيراً مما كانت تظن، إنه رجل رهيب بارد المشاعر لا يحوي ذرة من دفء الإنسانية... وأخذت تتمشى في أنحاء الحجرة وهي تضع يديها على وجهها الساخن، وما لبثت أن انهارت على الأرض تطلق صرخة مرتجفة، إنها تكرهه، تكرهه حقيقة. لقد كان يمثل في شخصه، كل الصفات التي تكرهها في الرجل.

ومرت الأيام القليلة التالية جالبة إلى نفسها السلوان بتتابعها المعتاد وعندما كاد الأسبوع أن ينصرم، كانت هي قد استعادت هدوئها النفسي. إنه لن يحاول الاتصال بها مرة أخرى، وأخذت تطمئن نفسها بذلك مرة بعد مرة، أثناء جلوسها لكتابة بطاقات المعايدة على وهج مدفأة الغاز،

بينما الرياح تصفع زجاج النافذة برقائق الثلج في عصر يوم الأحد الشتوي، ذاك. لقد انتهى كل شيء، انتهى ذلك الحادث الصغير الصعب المذلّ في حياتها والذي واجهته بعصبية بدلاً من الحكمة، ولكنه كان درساً عليها أن تتعلم منه، وأومأت برأسها وهي تقفل آخر مغلف بين يديها. ولكن، لماذا يتملكها مثل هذا الشعور الغريب...؟

ودخلت إلى المطبخ الصغير، يتملكها شعور بعدم الارتياح، ثم صنعت لنفسها كوباً من القهوة السوداء الثقيلة. إنها لن تسمح لنفسها بالاستسلام إلى هواجسها هذه التي تدفعها إلى الرغبة في البكاء حتى ولو لدقيقة واحدة. وعادت إلى غرفة جلوسها حيث فتحت التلفزيون ثم جلست تنظر إليه دون هدف معينٍ. وسرعان ما امتلأت الغرفة بأعين الأطفال التي أخذت تحملق فيها من خلال الشاشة الصغيرة.

مازال ثمة اسبوعان للعيد. وألقت نظرة على كومة البطاقات مفكرة. لقد أمضت العيدين الماضيين، بعد وفاة والدها، مع أسرة خالتها. فكانت تصل إلى هناك في اليوم السابق للعيد وتبقى إلى ما بعد ظهر يوم العيد، فكانت تستمتع بالعيد مع خالتها وزوجها وأولادهما إلى اقصى حد. وقد دعوها مرة أخرى هذه السنة. وكانت هي الآن تتطلع بشوق إلى الذهاب. وكان أحد أولاد خالتها قد ولد له توأمان، فكانت لا تكاد تستقر من الشوق لرؤيتهما، وبعد عودتها إلى هنا، كانت تنتظرها عدة دعوات إلى حفلات. لقد كانت محظوظة حقاً. وأومأت مرة أخرى بحدة. منذ الآن فصاعداً، ينبغي عليها أن تنبذ من ذهنها

كل الأفكار المتعلقة بذلك الرجل، ومن ثم تتابع حياتها العادية.

وبانتشار عدوى الأنفلونزا في المكتب، في الأسبوع التالي، تقلص عدد الموظفين إلى النصف. وتمتم جو بياس: «قبل عطلة العيد بالضبط.» وكان قد وصل لتوه بعد ظهر يوم الجمعة بعد اجتماع عمل كان فاشلاً تماماً ليجد موظفاً آخر عنده قد ذهب. ونظر حوله إلى المكاتب الخالية وهو يقول: «هل بإمكانك أن تعملي في عطلة هذا الأسبوع يا جاني؟»

فأجابت بوجه مشرق: «يمكنك أن تفترض أن العمل قد انجز.» وساورها شبه شعور بالذنب إزاء شكر جو المتدفق لها. وفي الواقع، اشعرها جوّ الشقة الخالية بكآبة لم تعرف سببها. فالعمل المتواصل يشغلها عن مثل هذه المشاعر، ثم أنها تحب عملها. كما أن العمل مع جو كان ممتعاً على الدوام، وهو أيضاً صديق جيد لها وليس رئيساً فقط، وهكذا، عملت في الأسبوعين التاليين من الساعة الثامنة صباحاً حتى التاسعة ليلاً دون توقف، مما أجهدها إلى حد بالغ وجعل حركاتها محمومة قلقة، ومع أن بعض الموظفين عادوا إلى أعمالهم، فإن آخرين من الموجودين قد عطلهم المرض، هم ايضاً. ويوم السبت، ابقتها الضرورة الملحة في المكتب إلى منتصف الليل تقريباً، لتعود في الصباح التالي الساعة السابعة. وعندما استيقظت صباح الاثنين شاعرة بصداع ثقيل وألم في عينيها، اعتبرت ذلك ناشئاً عن الإرهاق، وهكذا تابعت العمل بساقين ترتجفان وعضلات هشة كما لم تشعر بذلك من قبل. وكانت تتطلع إلى يوم

www.liilas.com/vb3

الأربعاء القادم، وهو اليوم الذي يسبق يوم العيد، كواحة في قلب صحراء. وحاولت أن تقنع نفسها أن متابعتها العمل لثماني واربعين ساعة اخرى، لن يكون فوق مقدورها. وعصر ذلك اليوم، اعترفت بينها وبين نفسها، بأن ما تشعر به إن هو إلا اعراض الانفلونزا، وعندما عادت إلى بيتها في سيارة جو الرياضية، كانت تشعر بما يشبه الموت.

ووقف جو في الردهة الصغيرة يسألها، وقد بدا عليه بجلاء تلهفه للعودة إلى جوّ مكتبه الصاخب، إن كانت تشعر ببعض التحسن، وأومأت هي برأسها بحزم وهي تجيب: «سأتناول بعض الأسبرين، ومن ثم آوي إلى الفراش.»

فقال وهو يتجه نحو الباب: «حسناً، لازمي فراشك إلى أن تشعري بالتحسن. وأنا لا أتوقع، رؤيتك مرة أخرى قبل عطلة العيد. أما هدية العيد لك مني فهي في بطاقة المعايدة هذه.» ووضع مغلفاً عريضاً على الطاولة في الردهة، ثم خرج.

وساءت حالتها في اليوم التالي. وتحاملت على نفسها لتتناول بعض الأسبرين مع شراب ساخن، لتعود بعدها إلى فراشها متلهفة وهي تشعر بالدوار.

وابتدأ اليوم السابق للعيد بمطر مثلج يتساقط على نافذتها، لتعلم أن ليس ثمة طريقة تستطيع معها فرض نفسها على اسرة خالتها، خاصة وثمة توأمان حديثا الولادة. وأبلغت خالتها بذلك هاتفياً في الوقت الذي كان فيه العالم كله مستيقظاً، لتمضي، بقية اليوم في شبه غيبوبة، شاعرة بالأسى لنفسها كلما عادت إلى الوعي.

وعندما ألجأها ألم في ظهرها، في المساء، إلى ترك فراشها والجلوس على كرسي كبير أمام المدفأة، ملتفة بدثار كبير وإلى جانبها صندوق مناديل ورقية وسندويتش لم تجد الشهية الكافية لتناوله، عند ذلك تمتمت قائلة وهي تمد يدها لتشغل التلفزيون: «يا له من عيد.»

وعندما قرع جرس الباب، لم تستطع الحراك، فتجاهلت ذلك. ولكن، عندما تواصل قرع الجرس، فلا بد من أن تفتح الباب إذ كان واضحاً أن الطارق سمع صوت التلفزيون، وبالتالي لن يفكر بالذهاب.

ووقفت تترنح وهي مازالت ملتفة بالدثار وفي يدها منديل ورقي، ومشت نحو الباب بعد ان ألقت نظرة على نفسها في المرآة المستطيلة في القاعة. كان شكلها في منتهى الفوضى بشعرها الأشعث ووجهها الشاحب وأنفها الأحمر... هل هذه هي مظاهر العيد؟ وعبست فيما الأفكار تراودها وهي ترى صورتها هذه في المرآة بأجفانها الحمراء... ليعود ذلك الشعور بالدوار فيمتلكها وهي تفتح الباب.

«لقد احضرت بعض الأوراق.»

جاءها ذلك الصوت العميق المألوف من مكان ما في الوقت الذي تراءى أمامها جسم ضخم في معطف قاتم ومكتمل بحقيبة أوراق، واقفاً عند الباب وهو يهتف: «جاني...»

وسرعان ما كانت سحابة سوداء تحتويها، لتتهاوى فاقدة القوى، على الأرض، ومازال في ذهنها شبه وعي مكنها من أن تلمح وجه كين ستيل منحنياً عليها يكسو

www.liilas.com/vb3

وجهه الفزع، مما بعث في نفسها الشماتة وهي تدرك أنها قد استطاعت أخيراً، أن تفاجئه وقد بدا عليه الضياع التام، تماماً مثل أي انسان عادي.

الفصل الرابع

عادت جاني إلى وعيها لترى نفسها على الكرسي الكبير، ملتفة بالدثار، ووجه كين ستيل الأسمر على بعد مسافة قليلة من وجهها.

وجاءها صوته العميق يقول برقة: «لا تخافي. كل شيء على ما يرام.» وتملكتها مشاعر السخرية وهي تفكر في أنه إذا كان ثمة من تخاف منه، فإنه هو نفسه. وعاد يسألها وهي ما زالت تحدق في وجهه، شاعرة بالدوار: «كيف تشعرين الآن؟»

www.liilas.com/vb3

فهمست: «أشعر بنفسي في فرن حار.» وذلك في الوقت الذي انفجرت فيه عاصفة من الضحك من شاشة التلفزيون، ملأت جو الغرفة، وأشار هو بيده نحو التلفزيون قائلاً بحدة: «هل أقفله؟»

فقالت: «نعم، افعل.»

وأخذت تنظر إليه وهو يتحول إليه يدير مفتاحه، متأملة شعره القاتم المتألق بالحيوية تلتمع عليه قطرات من ماء المطر، وجسمه الكبير القوي ووجهه الخشن الجذاب. لقد ملأت حيويته وقوته تلك الغرفة الصغيرة. وخامرها للحظة الذعر والتعاسة. إنها بحاجة إلى أن تكون قوية على الدوام أمام هذا الرجل، الذي سرعان ما سيستغل أية بادرة ضعف منها للتغلب عليها. إنها تعلم جيداً أن الشفقة هي شيء غريب عنه. أتراها نسيت ما قاله جو عنه، وما فعله هو بأبيها، وكل شيء؟

وقطع عليها أفكارها المحمومة هذه، بإمساك يدها الصغيرة في يده وهو يسألها برقة: «منذ متى وأنت على هذه الحال؟»

لقد كانت نسيت تأثير عينيه الزرقاوين وهي تحاول استجماع ذهنها المتلبد لتجيبه عن سؤاله. انهما قطعاً، أجمل عينين رأتهما في حياتها.

وعاد هو يقول وهو يضغط يدها: «منذ متى وأنت على هذه الحال؟»

فقالت وهي ترتجف: «منذ يوم الاثنين. إنها انفلونزا فقط، وقد أصيب بها كل شخص في العمل.»

فقال وهو يقف ناظراً إليها: «هكذا إذن.» ومشى نحو المطبخ وهو يسألها: «اتريدين شاياً أم قهوة؟»

فأجابت: «لا ضرورة لذلك...» ولكنها أسرعت تقول بعد إذ رأته واقفاً عند الباب رافعاً حاجبيه الأسودين وقد بدا في عينيه التصميم: «شاي، من فضلك.»

وسألها وهو يعود بفنجانين من الشاي يتصاعد منهما البخار: «هل استشرت الطبيب؟» وعندما أخذت ترشف الشاي شاكرة، شعرت بالدموع تتجمع في مآقيها دونما سبب واضح. وأزعجها أن تبدي ضعفاً في الوقت الذي كانت تريد فيه أن تظهر القوة.

ودفعت بيدها خصلة من شعرها الأسود إلى الخلف وهي تجيبه قائلة: «كلا طبعاً، لقد أخبرتك أنه لا يعدو أن يكون انفلونزا.»

فقال بحدة: «ليس ثمة ما يقال له (لا يعدو أن يكون) فمن الممكن أن يكون الأمر أسوأ بكثير. هل يؤلمك صدرك؟ أذناك؟»

فنظرت إليه بضجر قائلة: «آه... هل تهتم كل هذا القدر إذا كنت أنت مريضاً؟ إنها أيام قليلة واتعافى. حتى انني ابتدأت الآن في التحسن.» ونطقت بجملتها الأخيرة دون اقتناع منها.

فقال بفتور: «حسناً، أنت منظرك يبدو مخيفاً.»

وازداد وجهها المتوهج، احمراراً وهي تقول: «ما أحسن كلامك هذا. إنه ما انا بحاجة حقاً إلى سماعه.»

وسألها ونظره يجول في أنحاء الغرفة الصغيرة وكأنه يتوقع أن يرى أحداً في الغرفة: «ومن يعتني بك هنا؟ إن ثلاجتك فارغة تماماً... وقد وضعت لك في الشاي آخر قطرة من اللبن وجدتها.»

فأجابت: «أنا من أعتني بنفسي. ويمكنك ان تذهب الآن. إنني، في الحقيقة، لا يمكنني ان انظر في أية أوراق الآن.» ونظرت إلى حقيبته وهي تضيف قائلة: «أهي أوراق عدائية ام متعاطفة؟»

وقال متجاهلاً الجزء الأخير من كلامها: «هل تعنين أن ليس ثمة من يتردد عليك لقضاء حاجياتك وما أشبه؟ وهل ستمضين فترة العيد مع أي من أقربائك؟»

فأجابت وهي تعبث بطرف الدثار دون أن تنظر إليه: «لقد كنت سأذهب إلى بيت خالتي لولا اصابتي بهذه الأنفلونزا. وبما أن ابنة خالتي قد أنجبت توأمين حديثاً، فلم أشأ أن اغامر في التسبب لهما بالعدوى.»

فقال: «فهمت.» ووقف ببطء وهو يتابع قائلاً: «النتيجة هي أنك الآن بمفردك دون أي طعام في المنزل والساعة الآن السادسة من ليلة العيد. من تتوقعين أن يأتي لك بالطعام في اليومين التاليين؟ عابر سبيل؟»

www.liilas.com/vb3

فقالت بحدة شاعرة بالغضب الذي يلهبه هو في نفسها على الدوام: «لا لزوم للتهكم. إنني لا أشعر بأية شهية للطعام.»

فهز رأسه بسرعة وهو واقف ينظر إليها، وفي عينيه نظرة لم تفهم معناها وهو يقول: «لا أظن أنني قابلت مثلك في حياتي. هل يا ترى، ولدت بمثل هذه الشخصية الصعبة المستقلة، أم أنك أخذت دروساً فيها؟»

فأجابت متوترة: «اسمع، أنا لم أطلب منك القدوم إلى هنا هذه الليلة. أما كيف اسير بحياتي فهذا شاني أنا. وأنا لا أظنك في وضع يجعلك أهلاً لانتقاد نقائص الآخرين. خاصة بالنسبة إلى وضعي أنا معك.»

فقال باقتضاب: «ليس ثمة طريقة تجعلني أذهب وأتركك في مثل هذه الحال.»

فقالت حانقة: «إن حالتي ليست سيئة، على الأقل لم تكن كذلك قبل حضورك.» وكان كلامها هذا أكذوبة صارخة ولكنها لم تكن لتهتم في هذه اللحظة، وتابعت تقول: «انني بحالة حسنة تماماً، فالدفء يغمرني كما أن التلفزيون...»

فقاطعها قائلاً بلهجة متبلدة: «ودون طعام أو أحد معك. وهذا، بالطبع، سيكون عيداً لا ينسى. أليس كذلك؟»

فأغمضت عينيها لحظة وقد غمرتها موجة من الدوار. وفكرت بضيق أن عليها أن ترفع بصرها للنظر إليه. كان حقاً، اكثر الأشخاص الذين قابلتهم في حياتها غطرسة. إنه يكاد يدفعها إلى الجنون. وحدقت فيه لحظة بعينين متسعتين ملأهما الضيق، ثم قالت بضعف: «اسمع، هل لك أن تخرج من هنا؟»

فنظر إليها مبتسماً دون اكتراث وهو يقول: «لا يمكنني هذا. والآن، أين هي فرشاة اسنانك؟»

فسألته: «فرشاة أسناني؟» هل تراها دخلت في طور الهذيان والتصورات؟ وداخلها اليأس وهي تفكر في ذلك. ولكنه كان يبدو فعلاً أنه يسألها عن فرشاة اسنانها.

وأجاب هو بصبر واضح: «نعم فرشاة اسنانك وكذلك كل أدوات زينتك. وكذلك الأفضل أن تحضري قمصان نوم نظيفة. وأظن أن ثمة حقيبة ثياب في مكان ما من غرفة النوم.»

وبينما أخذ يجول بعينيه حوله، قالت بحدة: «انتظر لحظة. ماذا يعني اقتراحك هذا؟»

فأجاب بجفاء وهو يبادلها النظر بذلك الهدوء المثير للأعصاب: «إنني لا (أقترح) شيئاً، يا جاني. ولكني سآخذك معي بالطبع.»

فقالت بحدة فيها نوع من ذاتها المقاتلة القديمة: «انك لن تفعل ذلك لأن ما أشكو منه هو انفلونزا وليس خللاً في الدماغ. فانا لن اذهب معك إلى أي مكان.»

فقال ببطء وهو يشير نحو باب يؤدي إلى غرفة الجلوس: «إنني أتذكر حدوث مناقشة مثل هذه بيننا من قبل، هل تلك هي غرفة نومك؟»

فنهضت بجهد بالغ نظراً لالتفاف الدثار حولها، ثم تقدمت لتقف امامه، رافعة وجهها إلى وجهه الذي تكسوه السخرية، وهي تقول: «ألا تستمع إليّ؟ يمكنني العناية بنفسي هنا جيداً. وليس في نيتي الذهاب معك إلى بيتك مرة أخرى، خصوصاً يوم العيد حيث أنك سبق وخططت لكل شيء. وإذا

www.lilas.com/vb3

كنت تريد حقاً، أن تقدم لي خدمة، فإن بعض اللبن وما أشبه، تحضره إليّ من الحانوت القائم في منعطف الشارع، هو كاف جداً بالنسبة إليّ. ايمكنك هذا؟»

فأجاب دون أن تتغير ملامح وجهه: «لقد سمعت، والآن، أين هي حقيبة ثيابك؟ أم أنه يسرك ان تأتي معي بثيابك هذه فقط؟ اجلسي الآن، فقد سبق ولممتك من على الأرض، وكان وزنك ثقيلاً جداً.» وقال جملته الأخيرة بطريقة خالية من الشهامة.

فقالت: «آه، إنك... إنك...»

فابتسم ساخراً وهو يقول: «أعرف أعرف. إنك تكرهين وتتقززين من الأرض التي أسير عليها... ومع ذلك فأنت ستأتين معي في خلال دقيقة واحدة، سواء شئت أم أبيت.»

فردت ثائرة: «سيكون هذا دون ارادتي.» فأومأ هو برأسه ببطء وعيناه تلتهبان كالنار الزرقاء وهو يقول: «هذا حسن.» وانحنى يرفعها بذراعيه قبل أن تجد وقتاً للاحتجاج، وأذهلها امتزاج المفاجأة بالدوار، فلم تستطع النطق. والتقط حقيبة يدها من على المنضدة بإصبعه وهو يتجه بها نحو الباب قائلاً: «هل مفاتيحك في هذه الحقيبة؟»

فأجابت: «نعم، ولكن...»

فقاطعها وهو ينظر إليها بجد: «لا أريد أن اسمع كلمة (ولكن) هذه، بعد الآن.» وفجأة، انتبهت إلى تصاعد خفقات قلبها، ليس غضباً وإنما لشعورها الطاغي بقوته المتدفقة. لقد انتابها شعور رائع وهي ترى نفسها محط العناية والاهتمام. وامتزجت في نفسها مشاعر التعب والمرض

والتشوش، لتدفعها إلى التماس الاستناد إلى شخص آخر، ولو لفترة قصيرة.

ولم تنطق بكلمة قبل أن يضعها في المقعد الخلفي من سيارته البنتلي، رغم ما لمحته على وجه السائق بينز اثناء ذلك، من إمارات العجب. وقال كين بهدوء وهو يضع حقيبة يدها على ركبتها: «إنني بحاجة إلى المفاتيح لإطفاء أنوار شقتك. هل تريدينني أن آمر على أحد تجار الرقيق الأبيض أو ما أشبه؟»

وأجابته دون تفكير: «لا يوجد في البناية أحد.»

هز رأسه ببطء وهو يقول معاتباً: «ومع هذا كنت ستمضين فترة العيد بمفردك تماماً؟»

فأجابت بسرعة: «حسناً، لم تكن هذه خطتي في البداية. لقد سبق وأخبرتك عن التوأمين وخوفي من أن أنقل اليهما العدوى.» وأحكمت الدثار حول نفسها وهي تتابع قائلة: «ان في استطاعتي على كل حال العناية بنفسي.»

فقال وهو يتناول من يدها المفاتيح: «نعم، بدليل أنني لممتك من على الأرض عندما فتحت لي الباب.» واستدار ليبتعد بعد أن اغلق باب السيارة خلفه، عندما نادته وهي تضرب النافذة بيدها تستثير انتباهه: «كين.» فعاد يفتح الباب لتتابع هي قائلة بصوت ضعيف: «ان فرشاة اسناني وبقية الأشياء هي على عتبة نافذة الحمام. وهناك بعض الثياب وحقيبة للملابس في الخزانة في غرفة النوم.»

فقال وقد بانت على ملامحه علامات الرضى لرضوخها هذا: «هذا حسن.» وبقي واقفاً ينظر إلى داخل السيارة. فنظرت إليه بارتباك وهي تسأله: «ماذا؟»

www.liilas.com/vb3

فنظر إليها بمكر وهو يقول: «كين. إننا لن نعود إلى (السيد ستيل)... أليس كذلك؟»

فتبادلت معه النظرات لحظة طويلة قبل أن تسمح لبسمة خفيفة بأن تبدو على جانب فمها وهي تقول مرغمة: «كلا. انك الآن كين.»

فقال ساخراً ببطء: «لقد ظننت نفسي اكبر سناً من أن اكتب إلى رسالة سرية بما أرغب. ولكنه مع هذا وصلتني هديتي.» وقبل أن تجيب، كان هو قد اغلق باب السيارة وابتعد وعلى وجهه معنى لم تستطع هي ادراك كنهه.

وقفزت جفلة عندما أنزل السائق بينز الحاجز الزجاجي الذي بينهما، فجأة. وقال وهو يومىء برأسه اعتذاراً: «آسف يا آنسة لم اقصد أن اجعلك تجفلين. إنك إذن مريضة؟»

فقالت مبتسمة: «إنها الأنفلونزا. كانت صحتي جيدة طوال العام. ولكن، ما أن اتى العيد...»

فقال: «هذه هي العادة، يا آنسة، هذه هي العادة.» ونظر إلى وجهها الشاحب بإمعان ثم قال: «ليس أمامك إلا أن تريحي ظهرك إلى الخلف وتغمضي عينيك الآن، يا آنسة.»

ففعلت حسب اقتراحه وبقيت تستمع إلى صوت تساقط المطر على زجاج السيارة. بينما كانت تزيد من احكام الدثار حولها مستمتعة بالدفء والاسترخاء. ولا بد أنها نامت عدة دقائق قبل أن يعود كين بحقيبتها القديمة، لتستيقظ وقد انتابها شعور غريب وهي تراه يصعد إلى السيارة وقد تعلقت رقائق الثلج بشعره وكتفيه.

واستقر في مجلسه بجانبها، مشيراً إلى بينز للتحرك بالسيارة وهو يقول: «يالها من ليلة. انظري عصف الرياح.»

كان في صوته معنى عميق وعيناه النفاذتان تجولان فوق وجهها، بينما جلست تنظر إليه بهدوء. وبعد دقيقة قالت له ووجنتاها تتوهجان: «إن هذا من كرم اخلاقك.»

فسألها برقة: «أتظنين ذلك؟ هذا ليس صحيحاً. وهل بإمكاني ان اتركك في هذه الحال، لأعود فأتناول عشاء العيد؟ هل بإمكاني ذلك؟» وارتسمت على ملامحه الجذابة ابتسامة كاد معها قلبها يتوقف عن الخفقان. هل هذا هو الوجه الذي يقابل به نساءه؟ كان هذا هو تساؤلها عندما هدأ خفقان قلبها. إذا كان الأمر كذلك، فالحق مع جو عندما قال إن النساء يُعجبن به، ذلك ان امتزاج عنف الرجولة مع الرقة الدافئة، في شخصه، كان مخيفاً. ولكنها هي قد عرفت الجانب الآخر منه. وأغمضت عينيها وهي تفكر في قسوته التي سبق وقاسى منها أبوها، سواء منه مباشرة أم من أتباعه الذين، دون شك، كانوا ينوبون عنه في أعماله.

عليها أن لا تنسى الماضي. وكانت هذه الأفكار تعتمل في نفسها بينما السيارة تطوي المسافات بسهولة. كل هذه العناية والاهتمام لا شك صادران عن ضمير متعب. وهذا نفسه كان فيه الادانة له، فإذا هي نسيت كل ما سبق وقيل لها عنه والأهم من ذلك، ما عرفته، فإن عليها ان تتحمل العواقب. ولكن هل هو حقاً من القسوة كما سبق وظنته؟ لقد كان مجرد التفكير في هذا الرجل، أثناء العامين الماضيين، يجعل جسدها يضطرب، ولكن، الآن... ورمقته من تحت اهدابها الكثيفة، ما كان لها أن تدعه يقنعها بمرافقته إلى منزله. وأدركها الهلع وهي تفكر في أنها انما تلعب بالنار.

www.liilas.com/vb3

وسألها: «ها انك تعودين إلى العبوس.»

فنظرت إليه بحدة لترى وجهه تكسوه السخرية وسألته: «ماذا؟»

فأجاب بجفاء: «لقد كنت تفكرين بي. أليس كذلك؟ هل كنت تثيرين نيران الاتهامات؟ الا يمكنك الاسترخاء في مرضك هذا وتركي أحمل عنك هذا العبء؟ إنني اعرض عليك أن استضيفك في منزلي إلى أن تصبحي قادرة على الوقوف على قدميك مرة أخرى. وهذا كل شيء، وأنا أعدك بذلك. إنني أقوم بمثل هذا الشيء لأي كان.»

فسألته بارتياب: «أحقاً؟»

واحمر وجهها بعنف وهي تراه ينفجر بعاصفة من الضحك وهو يقول: «هل تعلمين انك لا تثقين بشيء؟ إنني لم أرَ امرأة من قبل لها مثل وجهك المعبر. هل أنت دوماً بهذه الصراحة؟»

فأجابت وهي تواجهه الآن مباشرة وقد بدت عيناها كبيرتين في تلك العتمة الخفيفة: «نعم. دائماً. لقد كان أبي بالغ الصراحة سواء في عمله أم حياته الشخصية. كان دوماً يقول ذلك، رغم ما كانت صراحته تلك تكلفه أحياناً. وعلى المدى الطويل، كان عليه أن يدفع ثمن صراحته تلك.»

وبدا الجد على وجهه للمرارة التي تدفقت بها عيناها وهي تتابع قائلة: «ولكن، طبعاً، ما كان بإمكانك أن تفهم هذا.»

فرد عليها بحدة: «طبعاً.»

وكانت قد توقعت منه أن يدافع عن نفسه. أن يكرر براءته. ولكن، عينيه المسمرتين على وجهها، كانتا في صلابة الحجر. واستند في مقعده إلى الخلف وهو يتنهد قائلاً:

«استريحي، يا جاني.» وكان وجهه وهو يقول ذلك، جامد الملامح خالياً من أي تعبير، وتابع يقول: «إنني أعرف تماماً رأيك في شخصي، لكنني أحب في المرأة انفتاحها العقلي وان كانت تعارضني في بعض المفاهيم انك في أمان تام، فلا تدعي الوساوس تداخلك.»

ولم يتبادلا، بعد ذلك، أي حديث، إلى ان وقفت السيارة أمام سلم واسع من الحجر ينتهي بباب ضخم. ولم يسمح لجاني شعورها بالمرض بأن تتحرك حين استدار كين حول السيارة ليفتح الباب الذي بجانبها، ثم يساعدها على الترجل. كان الصداع يكاد يقتلها وشعورها بالإرهاق لا يصدق. فقد كانت الحركات البسيطة التي قامت بها قد أرهقتها إلى درجة لم تشعر بمثلها من قبل.

وقال لها بهدوء: «سآخذك إلى غرفة الضيوف مباشرة حيث السيدة لانغتون ستعتني بك.» وكان السائق بينز قد فتح، في هذه الأثناء، الباب الأمامي لهما.

وأومأت هي برأسها موافقة، لتشهق باستغراب عندما دخل كين بها إلى المنزل الدافىء. فقد صافحت انظارها زينة ضخمة. فوقف ينظر إليها بوجهه الأسمر الخالي من التعبير، وهو يقول بلطف: «آه، هل اعجبتك؟»

فأجابت: «إنها رائعة.» ولأول مرة تشعر هي بأنه عيد حقاً. فمن جراء الإرهاق في العمل خلال الاسبوعين الأخيرين، ثم مهاجمة المرض لها بعد ذلك، أفقداها فتنة الشعور بالعيد. وتابعت تقول: «إنها رائعة تماماً.» ورفعت نظرها إلى وجهه لترى عليه شبه ابتسامة لابتهاجها الواضح هذا.

www.liilas.com/vb3

وتنهد قائلاً: «إننا نحاول أن نبلغ الفرحة في الاحتفال بالعيد، أليس هو يوم الفرح، والسعادة والتوبة؟» وكانت الكلمة الأخيرة التي نطق بها وعيناه معلقتان في عينيها، كانت سؤالاً ليس باستطاعتها أن ترد عليه. وعندما بادلته النظرات شعرت وكأنها غرقت في زرقة عينيه تلك. كانت امارات وجهه جامدة ومبهمة للغاية، بينما رائحة كولونيا الحلاقة التي يضعها، قد شدتها إليه اكثر فاكثر. وهمس قائلاً: «عيد سعيد، يا جاني.» ونفرت هي مبتعدة برأسها عنه. وتوتر فمه لحركتها هذه، وفي هذه اللحظة، برزت السيدة لانغتون وجاني، لتهتفا متعجبتين، لمنظرهما غير المتوقع هذا وهما صاعدين على السلالم.

وقال هو مخاطباً السيدة لانغتون من وراء كتفه: «هل غرف الضيوف جاهزة، يا سيدة لانغتون؟»

وأجابته مديرة المنزل من ورائه: «نعم، يا سيد ستيل، وثمة اثنتان خاليتان. واقترح أن تضع الآنسة غوردون في الغرفة البنفسجية الأثاث حيث انها تطل على الحدائق كما أنها اكثر هدوءاً من الباقيات.»

فأجاب: «نعم، إنها فكرة حسنة.» ووصلا إلى عدد كبير من الغرف تمتد في ممر كبير يكسو أرضه السجاد السميك. وتابعا صعود مزيد من السلالم، وفي الطابق التالي، استدار كين إلى اليمين وانتظر وصول السيدة لانغتون لتفتح له بابا محفوراً من خشب السنديان كان أمامه حيث دخل منه إلى غرفة جلوس رائعة الجمال مزخرفة بظلال مختلفة من اللون البنفسجي ويقوم في إحدى زواياها تلفزيون ضخم، وتابع هو طريقه، من خلال هذه الغرفة، إلى غرفة أخرى للنوم قام

فيها سريران. وأسرعت السيدة لانغتون في اسدال الستائر المخملية الثقيلة على النوافذ ليشيع في الغرفة جو دافيء مريح بالغ الرفاهة لم تعرف جاني مثله من قبل.

جلست كين على كرسي كبير من الخيزران، بينما أخذت مبيرة المنزل والخادمة الصغيرة تجهزان أحد السريرين بسرعة بعد أن أوصلا التيار الكهربائي ببطانية السرير، بينما كان هو يقول لها: «ان السيدة لانغتون ستتولى أمر راحتك، وبعد ذلك ننظر في أمر الطعام.» ومن ثم تركها وخرج من الغرفة.

وعندما رقدت جاني بين الأغطية الدافئة، شاعرة بعرفان الجميل، قالت لها الخادمة الصغيرة: «يا للحظ السيىء إذ تمرضين عشية العيد، يا آنسة.» وكانت كل هذه الأحداث تمر بجاني وكأنها في حلم. كانت الغرفة الواسعة بالغة الحد في الرفاهية والراحة. ودار رأسها وهي تفكر في أن مثل هذا الجو المترف هو عادي تماماً بالنسبة إليه.

ما الذي جعلها تفكر في أن تحتك به أثناء ذلك المؤتمر؟ وغمرها طوفان من الإرهاق. لماذا لم تقتنع بمجرد الشعور بالكراهية نحوه عن بعد؟ أما كان ذلك أفضل لها؟ أفضل كثيراً..؟ ولم تشعر بالنوم يهبط عليها حين أخذت السيدة لانغتون تسألها عما تريد أن تأكل، ولا عندما خرجت المرأتان بهدوء من الغرفة بعد أن اغلقتا الباب خلفهما بلطف... لم تشعر بشيء أبداً...

«آنسة غوردون.»

واستيقظت جاني من نومها العميق شاعرة بأطرافها ثقيلة كالرصاص وبرأسها يدور وقد تبلد ذهنها. وتابعت

www.liilas.com/vb3

السيدة لانغتون تقول: «عليك أن تحاولي تناول شيء من الطعام، ثم نتركك بعد ذلك، بسلام.» كانت المرأتان تقفان إلى جانب السرير وقد حملت الخادمة الصغيرة صينية طعام تحوي طبق حساء يتصاعد البخار منه، وقطعتي خبز إلى كوب من عصير البرتقال الطازج. وجاهدت جاني لكي تجلس وهي تنظر حولها زائغة العينين بينما رأسها ينبض بالألم، ثم سألت: «كم الساعة الآن؟»

وأجابتها مدبرة المنزل بهدوء: «الساعة التاسعة وقد رقدت ساعة أو نحو ذلك، ولكن السيد ستيل يريد منك أن تأكلي شيئاً قبل أن تستقري هذه الليلة.»

ولم يسبق لجاني في حياتها، أن شعرت بانعدام في شهيتها كما تشعر الآن، ولكن، تحت نظرات السيدة لانغتون الصارمة، جاهدت في ابتلاع عدة جرعات من الحساء ونصف قطعة خبز. ولكنها شربت كوب العصير.

وابعدت السيدة لانغتون الصينية عنها ثم ساعدتها على الاستلقاء بين الوسائد مما شعرت معه جاني بأنها عادت طفلة من جديد. كانت مدبرة المنزل امرأة يصعب قهرها حقاً.

وما أن خرجت تلك المرأة الطويلة القامة القوية الشخصية من الغرفة حتى دخل كين، ما جعل جاني تشعر بتوتر في أعصابها. كان يرتدي ملابس عادية مما جعله يبدو أكثر طولاً وجاذبية ببنطاله التبني اللون وكنزته السميكة بنفس اللون وهذا ما أظهر لون بشرته البرونزي اكثر سمرة.

وقال مسروراً: «هل تمكنت من تناول شيء من الطعام؟ لقد فكرت في أن ارسال الطعام مع السيدة لانغتون قد يأتي

www.lilas.com/vb3

بفائدة. إذ ليس كل شخص بإمكانه رفض ما تعرضه عليه إذا كانت هي مصممة على ذلك.»

فقالت جاني بضعف: «هذا ما رأيته.»

فتابع يقول: «ومع هذا فإن لها قلباً من ذهب.» وكان يتكلم بهدوء وهو يدني كرسياً إلى السرير ثم يجلس عليه، واضعاً ساقاً فوق ساق، وهو يستطرد قائلاً: «لقد قامت بتربية ستة أولاد بنفسها بعد أن مات زوجها تاركاً إياها أرملة في الثانية والثلاثين. وجميعهم الآن يعولون أنفسهم بشكل جيد.»

فقالت: «آه.» وأحست في جسدها بحرارة جعلت وجنتيها وأنفها يتوهجان احمراراً بشكل غير جذاب.

وقال فجأة بعد أن أمعن فيها النظر: «تبدين صغيرة الحجم جداً وهشة ضعيفة... ورائعة الجمال.»

فنظرت إليه غير مصدقة وهي تقول: «رائعة الجمال؟ إنني أبدو غاية في بشاعة الهيئة.»

فقال: «بشاعة جميلة.» وكان صوته عميقاً دافئاً وبالغ الرقة. وتابع قائلاً: «من كان يظن أنني سأمضي ليلة العيد جالساً على كرسي بجانب سريرك؟» وكان يتكلم بمكر وعيناه لا تفارقان شعرها الذي كان يتألق في نور الغرفة.

فقالت بتهكم وهي تتمالك نفسها: «من كان يظن؟ ولكنني أظن أن هذا الوضع يناسب طبيعة حياتك أكثر من غيره.»

فقال وهو يميل بظهره إلى الخلف رامقاً إياها بعينين باردتين ضيقتين وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة: «هل ظنك هذا نتيجة القصص السيئة التي تسمعينها عن الذئب الكبير

السيىء الذي لا بد قد جعل عندك فكرة عني بأنني أغوي العازبات؟»

فقالت: «لا تكن سخيفاً.» وكان حديثهما قد ابتدأ يخرج عن سيطرتهما وكانت هي تفتش عن طريقة تنتهي بها، فتابعت تقول: «ليس بك حاجة إلى البقاء هنا على كل حال. فانا لا أريد أن أفسد عليك الاستمتاع بالعيد.»

فأجاب: «ولكنني أحب أن أكون هنا.» ومد يده الباردة يلامس جبينها الملتهب، مستطرداً: «ولكنني لست متأكداً أبداً من عدم ضرورة استدعاء الطبيب.»

فأبعدت يده عنها بضيق وهي تقول: «إياك أن تفعل. فهذا المرض لا يستمر، في العادة اكثر من ثماني وأربعين ساعة. ولكنني كنت متعبة قليلاً قبل اصابتي بالعدوى وغداً ساكون معافاة تماماً.»

www.liilas.com/vb3

فقال: «أشك في هذا.» ومد يده إلى رف للكتب بجانب السرير، فتناول رواية ثم عاد إلى كرسيه مرة أخرى مستطرداً وهو يفتح الكتاب: «كوني فتاة طيبة إذن، وعودي إلى النوم.»

فقالت حائرة: «ولكنني لا استطيع النوم وأنت جالس هنا.»

فنظر إليها بعينين شبه مغمضتين وهو يسألها: «وما هو المانع؟»

فأجابت: «لأن ذلك لا... لا أستطيع...» وسكتت فجأة، ثم قالت متلعثمة: «فقط لا استطيع، وهذا كل شيء.» وسكتت.

فقال بلطف وعيناه مثبتتان على وجهها: «لا تكوني مترمتة. ماذا تظنين سأفعل؟ أثب إليك حالما يتملكك النوم؟»

فقالت بحدة: «كلا طبعاً.» وزاد توهج وجهها إلى درجة لم تكن تظنها ممكنة، واستطردت تقول: «كل مافي الأمر انني لا أظن وجودك هنا ضرورياً.»

فقال بهدوء: «ولكنني أنا أجده كذلك. لقد أغمي عليك مرة، كما أن لديك حرارة، ولن أترك مكاني هذا قبل أن اطمئن إلى انك بخير. والآن، حاولي ان تنامي.»

فقالت باستياء وهي تراه يعود إلى النظر في كتابه: «هل أنت عنيد دوماً بهذا الشكل؟»

فأجاب دون أن يرفع رأسه: «دوماً بهذا الشكل.» وأخذت تنظر إليه لحظة لا تعرف ماذا عليها أن تقول. كان شعره الكثيف شديد السواد مما كان يتعارض مع زرقة عينيه.

وسألته فجأة لخاطر طرأ على بالها: «هل والداك ارلنديان؟» وسرها أن رأته يجفل لسؤالها هذا، وسألها بدهشة: «والداي؟ لا أفهم.»

فقالت بسرعة: «ذلك لأن من العادي جداً أن تجد في ارلندا اجتماع الشعر الأسود مع العينين الزرقاوين.»

فقال بعد لحظة طويلة: «إن أمي ارلندية، فعليها يقع اللوم، ولكن أبي انكليزي.»

فسألته بفضول: «وهل مازالا حيين؟»

فابتسم تلك الابتسامة الحلوة التي استولت مرة، على لبها، وأجاب قائلاً: «إنهما حيان متعافيان، وهما يعيشان الآن في فرنسا، لأن أبي يعاني من مرض جلدي لا يلائمه سوى جو «بروفانس» المعتدل وقد تتعرفين إليهما غداً، فهما سيمكثان عندي عدة أيام.»

فسألته: «إنك، إذن لم ترث عنهما كل هذا؟» ولو أنها كانت

في كامل وعيها، لما جرؤت على توجيه مثل هذا السؤال الذي لا يخصها. ولكن النعاس الذي كان يزحف إليها، هذا إلى جانب الوضع العجيب الذي وجدت نفسها فيه، كل هذا جعل مثل هذا السؤال ينطلق من فمها دون وعي منها.

ولكنه لم يظهر أي ضيق لفضولها هذا، بل أجابها: «جزئياً. لقد كان جداي لأمي بالغي الثراء، وقد تركا كل شيء ليقسم بالتساوي بيني وبين أخي. وذلك في نفس الوقت الذي اكتشفت فيه ميلي إلى التعامل مع الناس، وذلك رغم دراستي الجامعية التي تجاهلتها. وهكذا سارت بي الحياة كما يقولون.»

وأومأت برأسها وقد ثقلت أجفانها الآن تماماً. فأغمضتها عدة ثوان. عند ذلك، نهض هو، فأطفىء النور وأضاء مصباحاً صغيراً إلى جانب الفراش، موجهاً إياه نحو كرسيه هو.

وشعرت بأصابعه تلامس جبينها وشعرها بخفة وهو يهمس: «ليلة سعيدة يا جاني.» ولكنها تصنعت النوم بينما كان قلبها يخفق بشدة. وسادت لحظة صمت طويلة، قبل أن تشعر به يتحول عنها ليعود إلى كرسيه يجلس عليه. وما لبثت أن استغرقت في النوم.

الفصل الخامس

وفي الصباح التالي، استيقظت جاني لتجد الغرفة خالية، وقد تحسنت حالتها إلى درجة كبيرة. واستكانت، لحظة إلى دفء ذلك الفراش الوثير. وعندما تحركت، أخيراً بحذر، وجدت أن تلك الآلام التي كانت تطحن عظامها قد أصبحت مجرد ذكرى سيئة.

وقرع الباب بأدب لتدخل الخادمة الصغيرة في نفس الوقت الذي كانت جاني تجاهد فيه لكي تستقيم جالسة وسط السرير الوثير. وابتسمت جين وقد أشرق وجهها وهي تقول بمرح، بينما كانت تضع كوب الشاي على المنضدة بجانب السرير، ثم تسير نحو الستائر تزيحها عن النافذة: «ها انك قد استيقظت يا آنسة، لقد قال السيد ستيل إن حرارتك كانت قد انخفضت حين ترك غرفتك ليلة أمس، وإنك كنت نائمة كالطفل. إن أمي تقول دوماً إن النوم هو أفضل دواء.»

«أحقاً؟» وابتسمت جاني للفتاة الصغيرة التي عادت لتقف بجانب سريرها، ثم تابعت قائلة: «ظننتك لا بد ذهبت إلى منزلك لقضاء عطلة العيد، ولكن ربما لم يستغن عنك السيد ستيل.»

فأجابت جين بسرعة: «كلا، يا آنسة. لقد قال إن بإمكاني أن آخذ إجازة أسبوع، إذا شئت. ولكننا، في المنزل، عشرة أشخاص في شقة مؤلفة من ثلاث غرف نوم، وهذا اجرام،

www.lilas.com/vb3

فأنا أفضل البقاء هنا. إن عليّ، في المنزل، أن أنام في الغرفة مع اخواتي الثلاث الصغيرات. وأنت تعرفين تصرفات الأطفال، بينما أنا هنا أسكن في غرفة خاصة، ولدي جهاز تلفزيون وحمام خاص. إنني أحبها كثيراً.» وبان عليها الشعور بالذنب وهي تبتسم قائلة بلهجة اعتذار: «ما كان لي أن أقول هذا، أليس كذلك؟ فأنا احب كثيراً أمي وأبي.»

فقالت جاني مواسية: «إنني متأكدة من ذلك.» وتابعت تقول وهي تسوي الوسائد من خلف جاني، ثم تناولها كوب الشاي: «عندما ينتهي عشاء العيد، يصبح على افراد الأسرة أن يعتنوا بأنفسهم ونصبح نحن احراراً في الذهاب إلى حيث نريد. ان صديقتي تسكن في المدينة القريبة، وأنا سأذهب إليها فيما بعد.»

فسألتها جاني بهدوء: «يبدو أنك تحبين حياتك هنا.»

فأجابت جين بحرارة: «آه، إنني أحبها جداً، يا آنسة. فالعمل عند السيد ستيل رائع، وهذا المنزل هو مكان سعيد حقاً، وليس كبقية الأمكنة التي تعمل فيها بعض زميلاتي. ماذا استطيع أن اخبرك...» ورفعت عينيها إلى السقف بحركة ذات معنى... وشعرت جاني بشيء من الإنزعاج إزاء هذا الفيض من المديح فهي لم تعرف في نفسها الغباء من قبل، لكي يدفعها بحقد إلى أن تشعر بالسرور لو أنها عرفت عن كين أنه، على عكس ما تقوله هذه الصغيرة، هو أشبه بالغول في بيته.

ما الذي حدث لها؟ وكانت هذه الأفكار تضايقها في الوقت الذي خرجت فيه الخادمة من الغرفة لاحضار صينية

الفطور إليها. لم يكن سوء الخلق أو التنمر من طباعها. طبعاً، لا بد أن تكون لهذا الرجل بعض الصفات الحسنة. حتى أن اعظم مجرمي التاريخ، كانوا لا يخلون من صفات جيدة تروى عنهم.

وكأنما أخافها اقتناعها بأنه رقيق من بعض الجوانب نفضت هذه الفكرة من رأسها بعنف، وهي ترشف الشاي الساخن، إذ أن هذا قد يفتح أبواباً أخرى تفضلها أن تبقى مغلقة. طبعاً، هذا ليس صحيحاً. وقاومت هذه الفكرة بعنف، فهي، إذا لم تتوقف عن مثل هذا التدقيق إذا ما توجهت أفكارها إليه، فهي ستجن حتماً، ويبدو أنها هنا لقضاء هذا اليوم، على الأقل، نظراً للظروف الخارجة عن ارادتها، وفي هذه الحال من الأفضل أن تتقبل كل دقيقة وساعة تمر عليها، كما هي وذلك لكي تتمكن من الخروج بسلام.

«صباح الخير.» لقد كان ملك الوحوش بنفسه، وتوهج وجهها احمراراً وهي تراه يقف عند الباب متكاسلاً وكان يبدو حليقاً جذاباً إلى درجة بالغة. وتابع يقول: «جئت لرؤيتك قبل الآن. فوجدتك نائمة.» كان يتكلم بلهجة عفوية وهو يدخل إلى الغرفة ببطء وقد ضاقت عيناه قليلاً إزاء أشعة شمس الشتاء المتدفقة من النافذة، وهو يستطرد: «إن الجو رائع في الخارج لقد هدأت العواصف.»

فقالت: «أحقاً؟» بينما كانت تفكر في أن العواصف في اعماقها هي، لم تهدأ وهي تراه، وقد انحسبت أنفاسها، يقف إلى جانب النافذة، وقد بدا لها وجهه الداكن، غامضاً. كان يبدو رائع البساطة في بنطلون الجينز والكنزة البيضاء

www.liilas.com/vb3

المقفلة. ولاشك أنه، لو ظهر بهذا الشكل في أي اعلان، لارتفعت كمية المبيع إلى أكبر نسبة، وسألته: «كم ساعة مرت عليّ وأنا نائمة؟»

فأجاب: «حسناً، إنها العاشرة صباحاً الآن. وهذا يعني أنك نمت حوالي الثلاث عشرة ساعة. يبدو عليك التحسن كثيراً. كيف تشعرين بنفسك؟»

فأجابت وهي تبتسم بحذر: «أشعر بصحتي ممتازة في الواقع مازلت لا أصدق أنني هنا.»

فقال بصوت عميق هادىء ودون أثر للفكاهة على وجهه المغضن: «وكذلك أنا غير مصدق هذا. هل يؤسفك ذلك؟»

ونظرت إليه بصمت لا تدري بما تجيب. نعم، انها تأسف لذلك بكل أحاسيسها، فهي الآن في خضم شيء خارج عن سيطرتها وهذا كان يخيفها، لقد كانت تشعر نحوه بجاذبية لم تعرفها من قبل ولم تكن تتصورها خارج نطاق القصص، هذا بينما هي تعتبر كل خفقة قلب نحوه، وكل رجفة مسببة عن تأثرها به، هي خيانة لأبيها وأسوأ أنواع الغدر له.

وقالت: «كين...»

فقاطعها رافعاً يده الكبيرة بينما احتلت عينيه نظرة ساخرة: «كلا، لا تنطقي بأية كلمة. لا أريدك أن تكذبي عليّ، كما أن الحقيقة، ستكون مدمرة، وعلى كل حال، فقد نطقت ملامحك بكل شيء. وقد نلتِ من العقاب ما يكفي.» ولم تفهم هي تماماً، السخرية الجافة المقتضبة تلك، وحدقت فيه بعينين متسعتين وهو يجلس على المقعد الذي سبق وجلس عليه الليلة الماضية. وتابع يقول: «ولا تظهري كل هذا

التفجع، فإن من حسن التغيير أحياناً، أن يكون المرء صائداً بدلاً من أن يكون هو الفريسة.»

وسألته: «ماذا تقول؟» كانت قد فقدت التركيز على ما يقول وهي تحاول ان تتمالك عواطفها إزاء التأثير الذي احدثه فيها قربه منها.

وأومأ هو نحو كوب الشاي الذي مازال ممتلئاً إلى منتصفه، قائلاً: «إشربي شايك، لقد احضرت جين لك الآن فطوراً خفيفاً إذ أن الغداء سيكون عند الساعة الواحدة. هل تظنين أن باستطاعتك النزول لتناول الغداء معنا؟»

فأجابت: «طبعاً استطيع.» وكانت أناقته الظاهرة تشعرها بمنظرها المزري. ورفعت يدها إلى شعرها الأشعث، وهي تستطرد: «سأحاول أن أحسن من مظهري هذا.» ووضعت كوبها الفارغ على المنضدة بجانبها.

فقال: «إن مظهرك ممتاز كما هو الآن.» ومال نحوها فجأة وهو يلامس جبينها بأنامله، وهو يقول: «يا أسيرتي الصغيرة.»

سمع صوتاً يناديه من الطابق الأسفل، فوقف فجأة، ثم مشى خارجاً من الغرفة دون أن يقول شيئاً، ونظرت هي في أثره ببلادة، وقد تملكها شعور هو مزيج من الذل والعار، وأخذت تتساءل بذهول وحيرة عما دعاها إلى مثل هذه التصرفات التي لم تقم بها من قبل مع رجل آخر قط، هذا إلى أنه لن يصدق ذلك مطلقاً الآن، وساورها الإكتئاب وهي تفكر في أن الثلاث سنوات التي امضتها في جو الجامعة الحر، قد جعلتها تتخذ لنفسها مبادىء أخلاقية لا تحيد عنها، ومع أن بعض صديقاتها الحميمات كن

www.liilas.com/vb3

يتورطن مع أصدقائهن منذ أول لقاء، فإنها كانت تعلم أن مثل هذا السلوك ليس لها. فهي ما كان بإمكانها أن تبذل شرفها، ثم تتابع حياتها بابتسامة لا أثر فيها للندم. إنها لم تخلق بهذا الشكل. وإذا حدث وشعرت بعاطفة صادقة ترتضيها فهي ستكرس لها حياتها، ثم أنها لم تقابل رجلاً مثله قط، من قبل. ولم يخطر ببالها، يوماً ما، أن ثمة رجل يملك هذه القوة من المشاعر.

وجاءها صوت جين الصغيرة يهتف بها، وهي تدخل الغرفة مرحة مشرقة: «ها أنذا، يا آنسة.» وأرغمت جاني نفسها على الابتسام وهي تتناول منها صينية الفطور التي كانت تحتوي الخبز المحمص والبيض وعصير البرتقال الطازج، وهي تقول: «ما أجمل هذا. شكراً لك.»

فقالت جين بسرعة: «لم تشأ السيدة لانغتون أن تفسد شهيتك للغداء، ولهذا ارسلت إليك فطوراً خفيفاً. هل تريدينني أن أملأ لك الحوض للاستحمام، أم أنك تفضلين الدوش؟»

فأجابت جاني مسرورة: «أظن الاستحمام أفضل، من فضلك.» وفكرت في أن الاستحمام بالمياه المعطرة بعد أيام المرض تلك، هو شيء لا يقاوم.

وعندما دخلت الخادمة إلى الحمام الملحق بالغرفة، ابتدأت جاني بتناول فطورها وهي تفكر في جمال هذه الحياة المرفهة، خاصة عند تماثل المرء للشفاء من الأنفلونزا، ولكن، عليها أن تنتبه لنفسها. ذلك أن كل ما يحدث لها هنا لا بد أنه شرك لإغواء فتاة عاملة عادية مثلها. فهي لا تخرج عن هذه الصفة. ومهما كان الداعي الذي دفع

كين ستيل إلى زيارتها ليلة أمس، سواء كان الرغبة في الانتقام، أم العاطفة والشفقة عليها، فإن أية روابط لا يمكن أن تقوم بينهما، حتى الصداقة. ذلك أن الماضي مازال مؤلماً للغاية. وهو ليس من الرجال الذين تحب فتاة مثلها ان تتورط معهم إنها تعلم هذا جيداً. وعادت إلى مخيلتها صورة الفتاة الفائقة الجمال التي سبق ورأتها معه في تلك الليلة أثناء المؤتمر الصحافي. وهي، جاني، لا تملك من الجمال، ولا الثروة، ولا الوضع الاجتماعي الذي يؤهلها لمنافسة مثل تلك المرأة، كما أنها على كل حال، ليست مستعدة لذلك. أما بالنسبة إليه، فقد يكون حقاً، اكثر الرجال الذين قابلتهم في حياتها، جاذبية، ولكن الناحية المظلمة في شخصيته، تحجب فتنته تلك كلياً، وهذا ما عليها هي أن تضعه في اعتبارها.

وتابعت التفكير، بعد ذلك، وهي مستلقية في ماء حوض الحمام الدافىء المعطر، عما يدفعه إلى الاهتمام بها، بهذا الشكل، بعد أن سددت تلك الطعنة إلى صميم كبرياء الرجولة فيه. تلك الكبرياء التي هي جزء لا يتجزأ من كل رجل. فقد عقد الصلح بينهما منذ اللحظة التي اجتمعا فيها... ولكن، هل من الممكن أن يكون ذلك الاهتمام الذي يبديه نحوها، ما هو إلا محاولة منه لإخضاعها لإرادته، ومن ثم ينشىء بينهما رباطاً يكون باستطاعته استعماله لترويضها والتغلب عليها؟ نعم، هذه هي المسألة، وجلست فجأة في ذلك الماء المعطر وهي تردد قائلة، نعم، بالطبع، هذه هي المسألة.

وقالت بصوت عال في ذلك الحمام الخالي: «حسناً إنك لن تنجح في هذا، يا سيد ستيل. فأنا لا يمكن أن يستغفلني

www.liilas.com/vb3

أحد، وهذا التقرب الرقيق والملاطفة، لن يخدعاني مطلقاً.»

وعندما خرجت من الحوض بعد دقائق قليلة، ألقت نظرة انتقادية على وجهها في مرآة الحمام المستطيلة، لتحدث نفسها بأنها ليست سيئة المظهر في الحقيقة، ولكن ليس ثمة شيء غير عادي فيها ليدير رأس أي رجل... وخصوصاً رجل بالغ الثراء، عنيف قاس ملاحق من النساء، وتتصدر أخبار حياته الصحف.

وارتدت ثيابها ببطء، وهي ترتجف بشكل يفوق ما كانت تظن، ثم جلست إلى منضدة الزينة تجفف شعرها بعناية جاعلة إياه ينساب بنعومة على كتفيها. وكان الثوب الذي كان كين قد أحضره لها من بيتها، من الصوف الناعم المشغول بخيوط القصب كانت قد ابتاعته حديثاً، وكان يظهرها أقرب إلى الطول والنحافة من حقيقتها، وقالت تخاطب هذا الثوب وهي تتمايل به أمام المرآة: «لقد كلفتني الكثير. ولكنك تستحق كل قرش دفعته فيك.»

وأغمضت عينيها لحظة بعد إذ شعرت بدوار في رأسها سرعان ما تلاشى، وفكرت في أنها، عندما تعود إلى منزلها هذه الليلة، فسترقد في فراشها يومين كاملين لتعود، مرة أخرى، طبيعية تماماً، هذا إذا مرت الساعات القادمة على خير.

وبدت لها المدة التي استهلكتها في الوصول إلى الطابق الأسفل وكأنها دهر بكامله. كانت أثناءه تقاوم مشاعر الرهبة التي تملكتها، وذلك بالإيحاء إلى نفسها بأن هذا المكان ما هو إلا منزل، وكين ستيل ما هو إلا رجل، وعائلته مؤلفة من أفراد من لحم ودم...

وهتف كين وهو يستقبلها فور دخولها المتردد إلى غرفة الجلوس الفسيحة، حيث كانت ضيقة غير مرغوب بها في أول ليلة اجتمعا فيها: «جاني... إنني مسرور لنزولك إلينا. ولكنك تبدين شاحبة جداً. تعالي إلى قرب المدفأة وسأقدمك إلى كل الموجودين.»

بدت لها غرفة الجلوس تلك، لأول وهلة، مليئة بالأشخاص، تبعاً لتوتر اعصابها. ولكنها عندما جلست وفي يدها كوب من العصير، وكين يجلس على ذراع مقعدها، أدركت أنه كان هناك، عدا كين، ثلاثة أشخاص وولدين صغيرين.

وقال كين مشيراً إلى شخصين حسني المنظر كبيرين في السن يجلسان معاً: «إنهما أمي وأبي. أما الملكان الصغيران الجالسان في الزاوية هناك فعندما تعرفينهما لن تجدي فيهما أية براءة.» وابتسم للولدين الذين ردا على ابتسامته على الفور، وتابع هو قائلاً: «كريستوفر وشارلوت وأمهما تينا، أسرة أخي كايث وأومأت تينا برأسها دون أن تبتسم، وقد بدا البرود على ملامحها وكأنها تذكر جاني بأنها عضو غريب بينهم.

وكان والدا كين رقيقين عطوفين، هما الاثنين، سرعان ما انخرطا معها في حديث عام وكأنهما يعرفانها منذ سنوات، ثم أخذا يلاعبان الطفلين اللذين كان تصرفهما غاية في التهذيب بالنسبة إلى صغر سنهما.

وتدخلت تينا في وسط الحديث، تخاطبها قائلة: «هل تعرفت إلى كين منذ مدة طويلة؟» وكانت تنظر إليها، مباشرة، لأول مرة، نظرات حادة كالفولاذ من عينين

www.lilas.com/vb3

زرقاوين كحيلتين. وفوجئت جاني بهذا السؤال، وعندما نظرت إلى ذلك الوجه الارستقراطي الخالي من العيب والذي تحيط به هالة من الشعر الأشقر المقصوص قصيراً بشكل رائع، عند ذلك أدركت حالاً أن زوجة كايث قد اتخذت منها على الفور، موقفاً عدائياً.

وأجابتها بهدوء: «كلا، ليس منذ مدة طويلة.» واستمرت تحدق في تلك العينين الزرقاوين حتى خفضت المرأة الأخرى نظراتها إلى الكوب الذي تحمله بأصابعها المنمقة. ولكنها سرعان ما رفعت رأسها، فتمايل القرطان في أذنيها يعكسان أشعة الشمس المتدفقة من النافذة، بينما ثوبها الأنيق المصنوع من الحرير الخالص، ينبيء بثمنه الغالي، وعادت تسأل جاني: «وأين تقابلتما؟ إن كين يكثر التجوال في الأماكن الغريبة، أليس كذلك، يا عزيزي؟» ولم تكن نظراتها اكثر رقة وهي تستقر على وجه أخ زوجها.

وتساءلت جاني بفضول عما وراء هذا كله، وذلك بعد أن شعرت بكين يتوتر بجانبها. وما أن فتحت فمها لتجيب، حتى أسرع كين ينوب عنها بالرد قائلاً بهدوء: «لقد اجتمعنا أثناء مؤتمر، منذ حوالى الثلاثة اسابيع. أليس كذلك يا عزيزتي؟» وحول نظره إليها لتتلاقي بعينيها الحائرتين... عزيزتي؟ عزيزتي! وتابع هو قائلاً: «وعندما داهم جاني المرض بدا لها أن من المعقول أن تمضي بعض الوقت هنا.» ونبهتها اشتداد قبضته على ذراعها، إلى أن تلتزم الهدوء.

وقالت الأم: «لو كنت مكانها لفكرت بهذا أنا أيضاً. هل تعيشين بمفردك، يا جاني؟»

فابتسمت جاني للوجه السمين والذي مازال محتفظاً

بجماله، أمامها وأجابت وهي تشعر نحوها بالإمتنان لتحويل مجرى الحديث: «نعم.» أما بخصوص كلمة (عزيزتي) فهي ستبحث هذا الأمر مع كين فيما بعد، وكذلك بالنسبة إلى الانطباع الذي يبدو أنه اسبغه على علاقته بها أمام عائلته. كيف جرؤ على التصرف وكأنها حبيبته؟

وبينما اتخذ الحديث مواضيع أقل توتراً، بقيت جاني شاعرة بنظرات تينا الملتهبة تحرق جانب رأسها، وعندما أدارت رأسها إليها جابهتها هذه بنظرات تطفح بالعداء تقيسها بها من أعلى إلى أسفل تقيم في ذهنها قيمة ما تلبس وتكلفة طراز شعرها، وعندما انتهت من ذلك بإشارة احتقار واضحة من شفتيها، شعرت جاني بدمائها تلتهب في عروقها، واستولى عليها الغضب وهي تفكر في هذه المرأة كم هي كريهة. والتفتت إلى والدة كين تجيبها عن سؤال قد وجهته هذه إليها، بينما تفكيرها مازال متعلقاً بتلك المرأة البغيضة. حقاً، كلما كان رحيلها قريباً عن هذا المنزل، كان ذلك أفضل. ولم تنتبه إلى أن عينين زرقاوين أخريين كانتا تراقبان في برودة الثلج، ما يدور بينها وبين تلك المرأة.

وبعد مرور عدة دقائق، قال كين بلطف: «هل نتوجه إلى غرفة الطعام؟» وعندما نهضوا للخروج من غرفة الجلوس، لاحظت جاني أن كين انحنى ليتمتم، بهدوء، شيئاً في أذن تينا جعل ملامح وجهها الباردة الجامدة، تظلم بشكل بشع، وذلك قبل أن يتحول إلى جاني ليمسك بذراعها لكي يتبعا الآخرين.

www.lilas.com/vb3

وعندما توقفا قليلاً في القاعة الكبيرة، وقد سبقهما الآخرون إلى غرفة الطعام، التفتت جاني إليه تسأله بشكل مباشر: «ماذا قلت لها؟ إنه شيء بخصوصي، أليس كذلك؟»

فأجاب بوجه جامد: «يالعينيك الحادتين هاتين. هيا ندخل.» وأشار بيده نحو غرفة الطعام.

فقالت بعناد دون أن تتحرك وهي تراه يحاول متابعة السير: «أريد أن أعلم ما الذي قلته لها.»

فنظر إليها بمزيج من السخط والفكاهة، ثم تنهد مظهراً صبراً مبالغاً فيه، ثم هز رأسه ببطء قائلاً: «يا لك من صغيرة عنيدة، يا عزيزتي.» وأحالت الرقة والدفء في صوته، كلماته المهينة تلك، إلى مجاملة حلوة، وتابع قائلاً: «معنى هذا انني لن أقلت بأي شيء يخصك.» ولم تجب، إنما بقيت واقفة تحدق في وجهه الداكن إلى أن انحنى بخضوع ساخر وهو يقول ببطء: «نعم. كان الحديث بخصوصك، هل أنت مسرورة الآن؟»

فأجابت بنظرة متمردة: «كلا. فأنت لم تخبرني عن نوعية الحديث بعد.»

فقال بليونة: «لا شيء سوى أنني نبهتها إلى أن تلجم لسانها من ناحيتك. وأنذرتها أن ارغامي على طردها إلى بيتها قد يسبغ الكآبة على فترة العيد هذه، هذا هو كل شيء.»

فقالت: «أهذا هو كل شيء؟» وتذكرت وجه تينا البارد المتكبر وعينيها الرائعتي الجمال، وشعرت، للحظة بالإحترام لقوة اعصاب كين. وتابعت تقول: «إن فيه ما يكفي لأن يصيبها بالإحباط. أليس كذلك؟»

فأجاب بذهول واضح: «تينا؟ مدللة أبيها تلك، والتي

مازال عليها أن تعرف الحياة بالرغم من أنها أرملة وأم لولدين، امرأة مثل هذه تصاب بالإحباط؟ إن العالم مليء بالقطط القذرة السافلة أمثالها، يا جاني. ومن سوء الحظ أن اختيار أخي لم يقع إلا عليها، ومن ثم...» وهز كتفيه.

وقالت: «فهمت.» ولم تعرف ما تقول اكثر من هذا، وسألها: «هل انتهينا من هذه المسألة؟» وعندما أومأت برأسها بسرعة، تابع قائلاً: «حسناً، هيا بنا إذن، إذ لا شك أن السيدة لانغتون تتململ الآن ضجرة من تأخرنا فهي الآن سيدة محبطة.»

وقع نظرهما، حال دخولهما غرفة الطعام، منظر العيد على المائدة الفخمة الفسيحة بالزينات الرائعة ذات الألوان الخضراء والحمراء والذهبية. وفكرت جاني، مرة أخرى، بمبلغ الدهاء والفطنة الذي يتمتع به هذا الرجل. ففي الوقت الذي لم يلاحظ فيه أحد شيئاً من ذلك العداء الذي شعرت به تينا نحوها، شعر هو به بسرعة، ليعالجه بمثل تلك السرعة. فكيف لها أن تصدق أنه لم يكن له علاقة بالطريقة القاسية التي عومل بها؟ إن كل ما يملكونه قد أصبح ملكاً لمؤسسة ستيل التي احالتها إلى مشاريع في غاية الأهمية. هذه الأهمية التي كلفت أباها حياته. فهل تراه، بعد كل هذا، يكذب عليها بكل صفاقة؟ لم تكن تعلم. إنها فقط لا تعلم. ونظرت إليه من تحت أهدابها وهو يجلس، ثمة حركة غريبة بدرت منه وكأنه يعاني صعوبة ما في جلوسه، هذا إلى شيء آلمه زاد من تغضن وجهه لحظة قصيرة. ووضعت أمه، التي كانت جالسة إلى

www.lilas.com/vb3

يمينه، يدها على ذراعه بسؤال صامت، فابتسم هو لها بعد أن استقر في مقعده، مربتاً على يدها وهو يهز رأسه بخفة.

أهو غموض آخر؟ وشعرت بشيء من الضيق. أليس ثمة من يخبرها عما يدور في هذا المنزل؟ «جاني؟» وأدركت فجأة أن والد كين كان يتحدث إليها دون أن تسمع كلمة واحدة.

وابتسمت هي قائلة: «إنني آسفة.»

فقال باسماً: «إنني أسألك عن مقدار نجاحك في التعامل مع ابني هذا. إن عليك أن تراقبيه جيداً، إنك تعرفينه.»

فأجابت بحزم: «نعم. إنني أعرفه.» وكانت لهجتها تحوي من الصدق أكثر مما كانت تحوي من اللباقة مما جعله يجفل قليلاً أمام حماسها هذا، ولكنه سرعان ما تمالك نفسه وهو يقول: «هذا حسن، هذا حسن.»

وتدخل كين في الحديث ليقول بلهجة تحوي شيئاً من الفكاهة الساخرة: «يمكنك أن تعتبر أنني، أخيراً، قد وجدت من يناسبني. أليس كذلك، يا عزيزتي؟»

وعندما بادلته النظر عبر المائدة رأت في عينيه، رغم الابتسامة التي تكسو ملامحه، رأت فيهما ناراً لاهبة جعلت عينيه الصارمتين أبعد ما تكون عن المرح وأدركت هي، بسرعة، أنه كان قد سمع ما تبادلته، مع أبيه، من حديث، ولم يعجبه. هذا حسن مادام قد فهم ما هدفت إليه بكلامها. وهزت كتفيها دون أن تجيب، ثم التفتت إلى الأب تسأله عن عمر الولدين، وقد كانا نقلا إلى الطابق الأعلى منذ فترة من الوقت مع الخادمة جين. ذلك أن تينا كانت قد سبق وأعلنت

للحاضرين أن اطعامهم مع الكبار هو شيء متعب وأنهم، على كل حال، بحاجة إلى النوم.

كان الطعام لذيذاً للغاية، مبتدئاً بحساء لحم الطيور ومنتهياً بديك الحبش التقليدي، تليه كعكة ضخمة مصنوعة من الخوخ والزبيب ومغطاة بالقشدة. وشعرت جاني، بعد انتهاء الطعام، أنها لا تكاد تستطيع الحراك، فقد كانت هذه أول وجبة طعام حقيقية تتناولها منذ أيام، مما أشعرها، فجأة بتعب بالغ. فقد كلفها السير إلى غرفة الجلوس، بعد انتهائهم من تناول القهوة، جهداً ملحوظاً.

وكانت تكتم التثاؤب للمرة الثالثة، عندما مالت والدة كين نحوها تلامس يدها برقة وهي تقول: «لماذا لا تصعدين إلى غرفتك وتأخذين غفوة قصيرة، يا عزيزتي؟ إن الانفلونزا تتطلب الانتباه التام.»

فقالت جاني تخاطب الحاضرين: «هل تأذنون لي بذلك؟ إنني أشعر بتعب كبير.»

وأجاب كين عن الحاضرين، مازحاً: «كلا، أبداً وسآتي بعد دقيقة، لأضعك في الفراش وأغطيك جيداً.»

ورمقته بنظرة متوترة دون أن تجيب. فقد كانت سخريته الخفيفة هذه، عقاباً منه لحديثها السابق عنه مع والده. وضحك والداه لما اعتبراه مزحة صغيرة من كين. ولكن تينا لم تبتسم بل ألقت نحو جاني نظرة تنفث حقداً. ولاحظت جاني، وهي تنهض، أن تلك المرأة تراقب كل حركة منها. ولم تتحول نظراتها عنها إلا بعد أن اندفع الولدان إلى الداخل ومازال وجهاهما الصغيران متوهجين من أثر النوم، وعيناهما تلتمعان كالنجوم.

www.liilas.com/vb3

وتبعها كين إلى أسفل السلم وهو يسألها: «هل تعرفين الطريق المؤدي إلى غرفتك؟» وعندما التفتت إليه تجيبه وجدته يحمل بيده شيئاً ملفوفاً بورق جميل مذهب من ورق هدايا العيد. وتابع يقول وهو يضعها في يدها قبل أن تدرك ما يفعل: «إنها لك. لقد تبادلنا جميعاً الهدايا مبكراً هذا الصباح وقد اعد الطفلان هذه لك بنفسهما.» وابتسم بحنان.

فقالت وهي تنظر إليه بارتباك: «ولكن... كيف أمكنك ذلك دون أن تعلم مسبقاً بحضوري؟ وأنا ليس عندي أي شيء أقدمه لأي منكم.»

فأجاب: «ليس عندك بالطبع، وقد صادف أن هذه الهدية تعود إلى جدتي وأنا أريدها أن تكون لك.»

فقالت: «لجدتك؟» ونظرت إلى اللفافة في يدها لحظة ثم تابعت تقول: «لا يمكنني أن أقبل أبداً شيئاً يعود إلى جدتك يا كين. إنك تعلم أنني لا أستطيع، فأنا لا أكاد أعرفك.»

فقال ببطء وتكاسل، وقد بدا التصميم في نظراته: «وهل هذا مهم؟»

فهزت رأسها بخفة إزاء هذا الوضع غير المعقول وهي تقول: «إنه مهم طبعاً. إن والديك لن يوافقا.»

فقال بهدوء يخفي تحته الفولاذ: «ليس لوالدي شأن بهذا. كما أنك لم تعلمي ما هي بعد.»

وتلاقت عيناه بعينها وهي تمزق الورقة ثم تفتح العلبة المستطيلة، وعندما رفعت بيدها السلسلة الذهبية الشبيهة بنسيج العنكبوت والتي تمسك بنجمة ذهبية في وسطها حص من الياقوت الأحمر، عند ذلك عاد يقول بصوت عميق رقيق: «انها ليست غالية الثمن فقد كان جدي لأمي مزارعاً

فقيراً عندما قابل جدتي سراً مدة سنة وكان يوفر معظم أجره كل أسبوع لكي يبتاع لها هذه السلسلة في ذكرى مولدها الثامن عشر. وقد تسببت هذه في أن يعلم والداها بعلاقتهما، وهذا قادهما إلى الزواج بعد شهور كثيرة من الآلام والدموع. إذ يبدو أن والديها كانا قد اعداها للزواج من «لورد» أو «إيرل». فقد كان جدي في نظرهما رجلاً فقيراً.»

فسألته برقة، وقد خلبت لبها هذه القصة: «وفي نظر جدتك؟»

فأجاب بنفس رقتها: «لقد أحب الواحد منهما الآخر إلى نهاية حياتهما. وكانت تمتلك المجوهرات والأحجار الكريمة والفراء النادر التي كانت الأسرة تتوارثها جيلاً بعد جيل، ولكنني لم أرها تتحلى قط سوى بمحبس ذهبي بسيط في بنصر يدها اليسرى، وهذه السلسلة حول عنقها.»

عند هذا نظرت إليه مبهوتة بعينين متسعتين، وهي تقول: «ولكن، كيف يمكنك أن تعطيني إياها ولها مثل هذا التاريخ؟ إنها أثمن من ذلك بكثير. إن أمك...»

فقاطعها قائلاً: «إنها ستتفهم الأمر تماماً عندما أخبرها أنني قدمتها إليك هدية.» وتركها ليتحول فجأة عائداً إلى غرفة الجلوس.

ونادته: «ولكن، كين...» وضاع صوتها وهو يغلق الباب خلفه بإحكام، ولكنها عرفت أنه قد سمعها، وعندها، أخذت تحدق في النجمة الذهبية الرقيقة في يدها، وقد تملكها الذعر، انها لا تفهم... لا تفهم شيئاً.

ماذا يعني هذا كله؟ واستغرقت في التفكير وهي تصعد

www.liilas.com/vb3

السلم نحو غرفتها. هل تعني قصة هذه السلسلة شيئاً بالنسبة إليه؟ لا بد أن الأمر كذلك. فإن الطريقة التي روى بها تلك القصة، كانت عاطفية للغاية. ولكن، إذا كان الأمر كذلك، لماذا خصها هي بها من دون الناس جميعاً؟ ووقفت عند باب غرفتها وهي تهز رأسها بخفة. أو ربما يعتبرها مجرد حلية ليست بذات قيمة كبيرة، وبالتالي هي هدية مناسبة لفتاة مثلها لا يكاد يعرفها. ولكن كلا... ليس الأمر كذلك. إنها تدرك جيداً أن الأمر ليس كذلك.

وعندما أصبحت في غرفتها، تهالكت على فراشها، وقد تبلد ذهنها من التعب. كل هذا ما هو إلا حلم... حلم جنوني غريب يتصرف فيه الناس ويقولون أشياء غامضة سرعان ما يمحوها ضوء النهار. وعادت تنظر إلى السلسلة، ولكنها جفلت بعنف عندما قفز فجأة، شيء ضخم إلى السرير بجانبها. وهتفت به: «لقد اخفتني يا جونيير حتى الموت.» ونظر هو إليها متكاسلاً وهو يتكور بجانبها، فابتسمت له بعطف بينما لحق به الهر الأصغر وهو يخرخر بصوت عالٍ.

ولما كانت أوامر السيدة لانغتون الصارمة أن لا حيوانات تصعد إلى الطابق الأعلى، فقد كان عليها ان تطردهما من الغرفة، ولكنها سرعان ما استغرقت في النوم وقد احاطت جونيير بذراعها دون وعي منها، بينما رفعت ذراعها الأخرى إلى ما فوق رأسها ويدها مازالت تقبض على السلسلة بشدة.

ولم تنتبه إلى رجل اسمر طويل القامة يدخل إلى الغرفة بعد دقائق، ليقف طويلاً يراقبها. وفتح جونيير وكوزموس أعينهما لحظة، ليعودا إلى الاغفاء بعد إذ أدركا أن سيدهما

www.liilas.com/vb3

كان مهتماً برفيقتهما اكثر من اهتمامه بهما. وقد بدا من خريرها مدى استمتاعهما بهذا الوضع.

وقبل أن يترك كين الغرفة، سحب غطاء السرير من على السرير الآخر، ثم ألقاه فوق جاني والهرين معاً.

وتنهد بعمق وهو يرى السلسلة متألقة بين أصابعها المتراخية والرقيقة.

الفصل السادس

وعندما فتحت جاني عينيها، كانت الظلال تغمر الغرفة، وكان الهران قد ذهبا منذ وقت طويل. وظلت مستلقية لحظة في تلك العتمة الدافئة، وهي تتساءل عما ايقظها، إلى أن تكرر القرع على بابها.

«نعم؟ أدخل.» وعندما أنزلت قدميها من جانب السرير، رأت بينز السائق يطل من الباب نصف المفتوح، قائلاً: «عفواً يا آنسة لايقاظي لك. ولكنني اتساءل عما إذا كنت تريدين هذه هنا.» ودخل إلى الغرفة يحمل حقيبة ملابسها الأخرى، والحقيبة العريضة التي اعتادت استعمالها لقضاء الليل خارج البيت.

ونظرت إليه باستغراب، فقال بوجه بشوش: «انها حاجياتك يا آنسة، فكرت في ان احضرها إليك من السيارة إذ هي ثقيلة عليك أن تحضريها بنفسك.»

فتملكها الغضب وهي تقول: «وماذا تفعل حاجياتي هنا؟ ومن طلب منك...»

«أنا فعلت ذلك.» واستدارت أعينهما إلى ذلك الرجل الواقف مسترخياً عند العتبة، بينما وضع بينز الحقائب، ثم خرج بسرعة وهدوء وقد ساد الجمود وجهه.

وحدقت بعينين ملتهبتين إلى وجه كين الخالي من التعبير وهي تسأله: هل أنت الذي طلب منه ان يحضر ملابسي من شقتي؟ انك تعلم انني سأذهب هذا المساء.»

www.lilas.com/vb3

فدخل إلى الغرفة متباطئاً دون ان يبدو عليه اي تأثر بانفعالها هذا، وهو يجيبها قائلاً: «انك لم تتعافي تماماً.»

فقالت بعنف: «انتني من يقرر ذلك. وبالنسبة إلى رجل غريب يدخل إلى شقتي ليعبث بأشيائي...»

فقاطعها قائلاً: «لقد حزمت السيدة لانغتون ثيابك من الخزانة التي سبق وأخبرتني أنت عنها، وليس من عادة الموظفين عندي ان يمروا ايديهم إلى ما يملكه الآخرون، إذا كان هذا ما يقلقك.»

فردت بحدة: «طبعاً ليست هذه هي المسألة.» انها لم تقابل رجلاً قط من قبل استطاع ان يدفعها إلى الجنون بهذه السرعة، مثل هذا الرجل. وأخذت تحدق، بغضب، في تلك العينين الباردتين، قبل ان تتابع قائلة: «انني اعرف انهم جميعاً موضع ثقة، كما انه ليس لدي ما يستحق السرقة.»

فابتسم ساخراً وهو يقول: «هذا حسن، لقد انتهت المشكلة اذن.»

فنظرت اليه ثائرة وهي تقول: «كم اتمنى لو أضربك.»

فرفع يده يلامس وجنته قائلاً: «مرة اخرى؟» كان ما يزال يبتسم ولكن عينيه كانتا في برودة الثلج وهو يتابع قائلاً: «لا أنصحك بذلك، يا جاني، فالمرة الأولى كانت غلطة، اما الثانية فستكون... ستكون نتيجتها غاية في السوء...»

وكادت تضرب بقدمها الأرض، كطفلة غاضبة، ولكنها تمالكت نفسها في الوقت المناسب وهي تقول: «ليس لك الحق في ان تحضر اشيائي الى هنا. لقد سبق ووافقت على عودتي إلى بيتي هذه الليلة...»

فعاد يستند إلى الجدار وهو ينظر اليها وقد ضاقت

عيناه إزاء ثورتها هذه، وهو يقول: «انني لم أفعل شيئاً كهذا. ربما كنت قلت لك ان بامكانك ان تخرجي عندما تتحسن صحتك تماماً، وهذا لم يحدث، وربما نسيت ما سبق وقلته لي بنفسك، امس في مثل هذا الوقت، من انك لم تتناولي طعاماً كافياً ومغذياً منذ أيام. فانت مرهقة جسدياً، وليس ثمة طريقة تجعلني اسمح لك بالعودة إلى بيتك في تلك البناية الخالية قبل ان تجتازي هذه الأزمة الصحية تماماً... فالأفضل ان تستسلمي للواقع.»

فسألته بتهكم عنيف: «اترى ضميرك يقلقك؟»

بان الجمود في عينيه وهو يجيب: «انه شيء كهذا.»

فقالت: «لا اعتقد ان لديك ضميراً.» لم يسبق ان شعرت من قبل بمثل هذا العجز، وكانت رغبتها في الاندفاع، عنيفة، وهي تتابع قائلة: «وإذا كان لديك، فما هو الا شيء صغير مطواع بحيث يمكنك ايقاظه، أو اخماده فقط ساعة تشاء.»

فتقدم نحوها، وجذبها لتقف على قدميها، وهو يقول: «لا تكوني مملة. فانا لا أنوي ان اخوض في مثل هذا الجدل العقيم في الوقت الذي يمكنني فيه أن أفكر في شيء آخر اكثر متعة من هذا بكثير.»

فقالت: «لقد سبق وحذرتك...»

فأجاب: «هذا صحيح». وهذه المرة، شعرت بأن عليها أن تقاومه.

وتمتم قائلاً بلهجة تحوي من التهكم ما لا يمكن انكاره: «لا تتحركي.» فخلصت يدها من يده بعنف، وأخذت تضربه على صدره تدفعه عنها، وهي تفكر في جرأته.

وقالت له عندما امسك بمعصميها بسهولة في يدٍ واحدة

وجعلهما خلف ظهرها، قالت غاضبة: «انني اكرهك، وانت تدرك هذا. أليس كذلك؟»

فأجاب: «ربما.» ولم يكن في لهجته الآن اي معنى للمزاح. وكان صوته عميقاً خشناً جعل القشعريرة تسري خلال جسدها. وعادت تقول: «نعم، انني اكرهك.»

وفجأة، تصلب جسدها وقد شعرت بالذعر وهي ترى الحقيقة الصارخة تنصب عليها كالماء المثلج. ما الذي تراها تفعله؟ اي شيء في الكون يجعلها تقبل بوضع مثل هذا؟ هل تراها تخلت عن عقلها لكي تقبل بوضع مثل هذا؟ ومعه هو؟

وشعر هو، على الفور، برفضها هذا، فتركها من بين يديه، وجلس مبتعداً عنها، وهو يتخلل شعره الكث بأصابعه، ليقف، بعد ذلك، ببطء، ثم يسألها بصوت خشن: «هل ستبقين هنا يوماً او يومين بعد؟»

وللحظة، جعلها النظر إلى وجهه، خرساء لا تستطيع الكلام، كانت قد توقعت أن ترى على ملامحه امارات الظفر او الرضى، او حتى الانزعاج والضيق لرفضها له، ولكن المعاني التي رأتها على وجهه المغضن، لم تشر إلى أي شيء من هذا. بل كان يسود ملامحه معنى لم تتمكن من معرفته أو سبر غوره. وتابع قائلاً: «انني اعدك بأن لا يتكرر هذا الذي حدث الآن. انني لم اخططه، يا جاني، مسبقاً، فهل تصدقينني؟»

فهزت رأسها قليلاً وقد تورّدت وجنتاها وهي تجيب: «لا أدري.» كان الشيء الوحيد الذي كانت متأكدة منه، في هذه اللحظة، هو انها لم تكن متأكدة من شيء. إن بإمكانه أن

www.liilas.com/vb3

يكون في منتهى القسوة كما حدث بالنسبة لتعامله مع أبيها. فهذه كلها لعبة منه. لقد كان غنياً بما فيه الكفاية، وربما مدللاً أيضاً ما جعله يحاول أن يسلّي نفسه مع واحدة مثلها، وذلك من باب التغيير من حسناواته الشقراوات الأنيقات.

وقال فجأة بصوت بدت فيه نبرة السيطرة: «إنك ستمكثين هنا حتى يوم الأحد. فإن اسرتي ستستغرب الأمر إذا أنت تركت المنزل الآن فجأة. هذا إلى أن والدتي تتطلع إلى بقائك هنا مدة أطول. فهي لا تنسجم مع تينا.» وكان يتكلم بينما عيناه متحولتان عنها.

فقالت متهكمة: «إنني لا أستغرب هذا، ولمعلوماتك، فأنا لست هنا لأصنع معروفاً معك بالنسبة إلى امك أو أي شخص آخر. وعندما أتذكر معاملتك لأبي...»

فقال ببرود دون أثر للدفء في عينيه: «إن كلامك هذا يتساقط على رأسي كالجمر الحارق.»

فقالت بشيء من الإرتباك: «ألا تكون الأمور اكثر يسراً، إذا أنا رحلت؟ إنني لا أفهم سبب تعلقك ببقائي. لقد كانت تصرفاتك معي في منتهى الشهامة، ولكن لا حاجة بك إلى...»

فقاطعها قائلاً: «ربما كنت محقة في قولك إن السبب هو الشعور بالذنب وما أشبه.» وتحول نحو الباب وقد أظلم وجهه، وللحظة، أدركت السبب في نجاحه في إرهاب الآخرين. لقد كان مخيفاً. وتابع هو قائلاً: «العشاء سيكون في الساعة الثامنة.»

وقبل أن تجيب بشيء، كان الباب قد أغلق خلفه. وجالت بنظراتها في أنحاء الغرفة الخالية، بغباء وقد امتزجت في

نفسها مشاعر الغضب والضيق، والعجز والإحباط لهذا الضعف منها، ثم هناك شيء آخر... شيء لا تريد أن تفكر فيه ولو لحظة واحدة، وهو أنها، رغم كل ما تعرفه عنه، كانت في أعمق اعماقها ترغب في البقاء، وهذا ما جعل الفزع يتملكها.

وعندما دخلت غرفة الجلوس، ذلك المساء، اندفعت والدة كين تقف بجانبها وهي تسألها: «هل نلت ما يكفي من الراحة، يا جاني؟» وكان الجميع جلوساً يتناولون الشاي قبل العشاء، وكان الجو بينهم لطيفاً مريحاً. وكانوا جميعاً غاية في الأناقة، وقد أحاطت بهم مظاهر الرفاهية والجمال، مما جعل جاني تتمنى من كل قلبها لو كانت في أي مكان آخر.

كانت قد ارتدت ملابسها بكل عناية، شاكرة ظروف عملها في مجال الاعلام، والذي يحتم عليها الظهور بملابس أنيقة غالية الثمن أثناء عملها. والآن، وهي تنظر إلى هاتين المرآتين، علمت بأنها أحسنت اختيار ملابسها لهذا المساء، إذ كان ثوبها الأسود يعمق من لون عينيها البنيتين كما كان طراز شعرها الأسود المرفوع، بذوائبه المتدلية تظهر بياض بشرتها الناصع.

وابتسمت لوالدة كين وهي تومىء برأسها قائلة بهدوء: «نعم، وشكراً لك. وأنا آسفة إذ ابدو واهنة القوى، مع أنني لم أمرض من قبل قط.»

فابتسم السيد ستيل وهو يقترب منها قائلاً: «إن الانفلونزا لا توفر أحداً. ماذا تريدين أن تشربي؟ إنني أقوم مقام صاحب البيت الآن.»

www.liilas.com/vb3

فأجابت وهي تدير نظرها حولها: «أليس كين هنا؟»

فأجابت أمه: «جاءته مكالمة هاتفية من الولايات المتحدة لم يستطع أن يتجاهلها.» وكان في صوتها شيء من العنف وهي تستطرد قائلة: «كما قال.» ونظرت بعينيها الزرقاوين الرقيقتين في عيني جاني مباشرة وهي تتابع قائلة: «إنه بحاجة إلى من تمسكه بشدة، يا عزيزتي، وأن يتعلم شيئاً من الاسترخاء، فهو لا يحب أن يوكل عنه أحداً، رغم أنه يجهد نفسه في العمل، خصوصاً...» وسكتت فجأة عندما سعل والد كين محذراً. وغيرت مجرى الحديث مستطردة: «حسناً. هل فهمت ما أعني؟»

فأجابت جاني وهي تغتصب ابتسامة مليئة بالمرارة المفاجئة: «نعم، أظنني فهمت، إنه لا يحب أن يوكل احداً في العمل.» ها قد سمعت هذا الوصف له من أعرف الناس به، من أمه نفسها. ثم بعد هذا، يتوقع منها أن تصدق أنه لم يشترك بقضية أبيها.

وتابعت الأم دون أن تنتبه إلى غضب جاني المكتوم: «وفي يوم العيد كذلك. هذا ليس حسناً، في الحقيقة. يجب أن تتحدث إلى الولد، يا جورج.»

فأجاب والده بجفاء وقد بدا الحنق في عينيه: «أظن كين قد خرج من طور الطفولة منذ سنوات وأنا لا أظن أن جاني تحب سماع هذه الشكاوى، يا عزيزتي.» واستدار نحو جاني يسألها: «والآن، ماذا بالنسبة إلى الشراب؟»

وأجابت جاني بأدب: «أريد كوباً من عصير الأناناس إذا كان موجوداً يا سيد ستيل.»

وقالت زوجته لها باحتجاج: «ادعينا بإسمينا

إيليانا وجورج، يا عزيزتي. ولا تتكلفي الرسميات بيننا.»

وما أن أخذت جاني أول رشفة من العصير، مصممة على تجاهل نظرات تينا الخبيثة المنصبة عليها، حتى دخل كين الغرفة. وضايقها ما تملكها من بهجة لرؤيته وعلى الفور، أخذت عيناه تبحثان عنها حتى استقرتا على وجهها لحظة طويلة، قبل أن تتحولا إلى الآخرين الموجودين في الغرفة، قائلاً ببساطة وهو يسير ليقف بجانب جاني: «آمل أن تكونوا جميعكم جياعاً، إذ يبدو أن السيدة لانغتون قد أبدعت في عملها.» وللحظة واحدة، عادت إلى مخيلتها صورة هذا الرجل البارد الصارم، ذو الثراء الأسطوري والسلطة المخيفة، هذا الرجل كاد أن... وأغمضت عينيها لحظة خاطفة لم تستطع أن تفكر في ذلك. لقد كانت غلطة لا ينبغي لها أن تتكرر.

وهمس في أذنها: «إنك تبدين غاية في الجمال.» وأرسل صوته العميق الرقيق الرجفة في أوصالها.

وأجابت دون أن تنظر في عينيه: «شكراً.»

فعاد يهمس: «بإمكاني ان أحبك.» وعندها تحولت تنظر في عينيه بحدة، لترى على ملامحه تهكماً ماكراً، أما ما تضمنته كلماته هذه من عاطفة، فقد بدت في أعماق عينيه اللامعتين.

وتمالكت نفسها بجهد ملحوظ، لتبتسم ببرود قدر استطاعتها وهي تقول بسخرية: «يمكنك أن تجرب. ولكنني أؤكد لك أنك لن تذهب بعيداً في هذا.» انه يظهر الآن لونه الحقيقي، وأخذ ذهنها يتصور السيد الاقطاعي الذي يطالب بكل فتاة في أملاكه يرغب فيها، هل ثمة شيء من

www.liilas.com/vb3

هذا في ما يقصد إليه؟ إنها لا تثق به مقدار ذرة.

ومال إلى الأمام قائلاً: «ها انك تفسدين متعة الحديث...» وقاطعه صوت تينا من أقصى الغرفة حيث كانت جالسة منتصبة القامة متصلبة الجسم والوجه وهي تحدق في جاني وقد امتلأت عيناها الجميلتان بالحقد، قاطعه صوتها قائلة: «إن جراثيم الانفلونزا هذه لا بد قد أفسدت كل مشاريعك للعيد. وكنت محظوظة إذ امكنك القاء كل شيء من بين يديك بمجرد أن وصل كين إلى عتبة بابك.» وكانت تتكلم بلهجة باردة وقد التوى جانب فمها بشكل لم تفهم جاني معناه.

فأجابت جاني بشيء من الإرتباك: «نعم، أظن ذلك.» كان من الواضح أن تلك الشقراء الجميلة كانت بسبيل أن تثير موضوعاً ما، ولكنها لم تعرف بالضبط ما هو في تلك اللحظة.

فسألتها تينا: «هل دخل صدفة دون توقع منك؟»

فأجابت جاني: «نعم.» وقابلت نظرات المرأة بحزم إنما بشعور من يعد نفسه لمواجهة خصم، بعينين معصوبتين.

فقالت تينا: «لقد فهمت...» وفي هذه اللحظة قطع والد كين حديثهما سائلاً إبنه بهدوء: «كيف كانت نتيجة المكالمة؟ هل تحسن الوضع؟»

فأجاب كين باقتضاب: «كلا.»

فقال والده دون أن ينتبه إلى عدم رضى كين عن الخوض في هذا الموضوع: «حسناً، لا بد أن يدرك كولينز العجوز الوضع عاجلاً أم آجلاً. إن مصنعه قد انتهى والجميع يدركون ذلك.»

فقال كين بوجه عابس: «ربما.»

فعاد الأب يقول: «قد يكون ابنه صديقك يا كين ولكن امبراطورية كولينز ستنهار في خلال اسابيع وليس شهور، فمن الأفضل أن تتدخل أنت بدلاً من أن يأتي شخص قد يظلمه. إنك على الأقل...»

فقاطع كين أباه بحزم: «لا أظن أن النساء هنا يهمهن حديثنا هذا في شؤون العمل يا أبي، دعنا نغير الموضوع.»

فتأففت تينا بطريقة مبالغ فيها، تظهر بذلك كراهيتها لهذا الموضوع، قائلة: «أوه، من فضلكم... ان هذا ممل جداً. فإذا كان ذلك الرجل الأحمق من الغباء بحيث يفقد أمواله، فالذنب ذنبه، ولكين كل الحق في أن يتدخل، أليس كذلك يا عزيزي؟» وكانت عيناها قاسيتين لامعتين كالماس وهي تتابع قائلة: «إنني لا احتمل الأشخاص الذين لا يدركون متى عليهم أن يخضعوا للواقع. إن هذا شيء محير...»

فقاطعها كين: «تينا.»

فقاطعته أمه وهي تقف ممسكة بذراعه: «الساعة الآن، الثامنة يا عزيزي، وإذا لم نكن في غرفة الطعام في اللحظات التالية، فإننا لن نتخلص من كلام السيدة لانغتون. هيا بنا.»

ونظر كين إلى وجه أمه الرقيق المتوسل، فترة طويلة تبادل معها نظرات صامتة معبرة، بينما بقيت هي قابضة على ذراعه بشدة، ثم تنهد بعمق وهو يشير إلى الآخرين بالنهوض قائلاً: «هيا، تفضلوا جميعاً.»

ولكن جاني بقيت جالسة في مقعدها تحدق فيه، لقد مست قسوة تينا من نفسها وتراً حساساً كان مايزال ينزف.

www.liilas.com/vb3

هل بهذه الطريقة كانوا يتحدثون عن قضية والدها؟ أبهذه البساطة وهذا البرود وكأنها من مقبلات الطعام؟ ما الذي جعله يسمح لتلك المرأة بإبداء مثل هذه القسوة والتصلب دون أية كلمة منه؟ وما نوع هذه الأسرة؟ ألا يدركون أنهم يخوضون، يوماً بعد يوم، في معيشة مئات من الناس العاديين الذين عليهم أن يعملوا لكي يأكلوا ويجدوا سقفاً يظللهم؟ ولكنهم يعاملون ذوي القلوب المحطمة، بكل عدم اهتمام وغياب ذهن، لأنهم أغنياء آمنون في قصرهم المبطن بالذهب. حسناً، إن في هذه الكفاية... الكفاية التامة.

وقالت جاني بصوت واضح حازم وهي تحدق في وجه كين مباشرة: «إنني لست جائعة.» ثم التفتت تحدق في تينا التي كانت تنهض واقفة، وقالت: «يبدو أن ثمة ما أفسد شهيتي.»

وأشار كين إلى الباقين بالخروج قائلاً: «سألحق بكم بعد لحظة.» ثم أغلق الباب خلفهم. وعندما تحول نحو جاني كانت عيناه باردتين غائمتين لا أثر فيهما للمشاعر.

وقالت له: «أريد أن أرحل الآن، يا كين. إنكم جميعاً هنا، كمجموعة آتية من كوكب آخر، وقد نلت منكم الكفاية. ومهما كان هذا «الكولينز» فلا بد أنه في حالة يرثى لها من اليأس تلك التي دفعته إلى الاتصال بك ليلة العيد. ما الذي كان يطلبه؟ الشفقة؟»

فأجاب بوجه جامد: «شيء كهذا؟»

فقالت بمرارة: «ولكن عالم الأعمال لا يعرف معنى لهذه الكلمة. أليس كذلك؟ حسناً، لا يمكنني أن أكون طرفاً في قضية كهذه. ان هذا يشعرني بالإشمئزاز... بالغثيان.»

فهتف بها: «إياك والتلفظ بكلمة أخرى.»

وفوجئت بانفجاره هذا. لقد كان منذ لحظة، جامداً خالياً من المشاعر وهو يستمع إلى ما تقول، ليقلب كيانها، في اللحظة التالية، بتعنيفه هذا وعيناه تقدحان شرراً. كان عليها أن تعرف قبل هذا الهجوم العنيف ان هذا الوجه الخالي من المشاعر، هو سلاح لا يضاهى في عالم الأعمال، يستعمله هو في سبيل المصلحة، بشكل كامل ولكنها سبق ورأت لمحة من هذه الناحية من شخصيته تلك الليلة بعد المؤتمر الصحفي عندما أخذت ثروة كين ستيل تنفث الحمم.

وتابع قائلاً وهو يكاد يلقي بها على الكرسي الذي كانت قد تركته واقفة: «انك الآن ستقفلين فمك وتجلسين بصمت لتستمعي إلى كل كلمة أقولها.» وكان يميل فوقها متوعداً وقد أمسك بذراعي كرسيها، وهو يستطرد قائلاً: «أتقولين إنك تشعرين بالغثيان؟ حسناً، إنني أنا أشعر أيضاً بالغثيان... الغثيان من ظهوري بمظهر النذل، بالغثيان لمرأى تلك النظرة في عينيك إزاء أي شيء يذكرك بأبيك، الغثيان من عدم استماعك إلي.»

وفكرت وقد عقد لسانها الذعر، أنها تستمع الآن، ذلك أنها لم تجرأ على القيام بأي شيء آخر. فقد كانت ثورته العنيفة قد حولت ملامحه إلى شكل بالغ الشراسة.

وقال بصوت يهتز من الغضب: «إنك تتحدثين عن ذلك الحديث الذي دار بيننا منذ دقائق، فهل بلغت من الغباء إلى هذا الحد؟ إذ تستمعين إلى تلك العنكبوت الحاقدة، أرملة أخي وهي تنفث حقدها في هذه الغرفة؟ ذلك ما سمعته أنت.

www.liilas.com/vb3

إن تينا من ذلك النوع من النساء اللائي يستحققن الحرق. فهي الشر بذاته صدقيني. فهي قد أذلت أخي منذ اليوم الذي تزوجته فيه، وذلك بأسوأ الطرق. لقد كانت تحقر رجولته يوماً بعد يوم. لقد كان غنياً إنما ليس بما فيه الكفاية وكان ذا سلطة، ولكن ليس إلى حد كاف. لقد كانت تتطلب رجلاً عنيفاً قاسياً يلزمها حدها إذا هي حادت عن الطريق السوي. ولكنها حصلت بدلاً من ذلك، على كايث. وكان كل ما فعله، وما هدف إليه هو أن يكون نفس نوع الرجل الذي تريده أن يكون.»

فقاطعته قائلة: «كين...»

فضاقت عيناه المتألقتان وهو يقاطعها بقوله: «قلت لك أن تقفلي فمك.» وأقفلت هي فمها بينما تابع يقول: «لقد احتقرته، وكان هو يعرف ذلك، ولكنه لم يتركها. فقد كان يحبها.» وكان في صوته الخشن وهو يقول ذلك، من الكآبة ما تنطق بألم دفين لا يحتمل. واستطرد قائلاً: «لقد كان منذ طفولته رقيقاً عطوفاً ودوداً. ولو رأيته مع طفليه، لأدركت ذلك. لقد كانا شغوفين به. ولكن هذه الصفات كانت تعتبر، في نظر تينا، ضعفاً، ولهذا أخذ يحاول الظهور بصورة مختلفة، متبنياً مفاهيم حطمته، في النهاية، جسدياً وعقلياً، وذلك في سبيل ارضائها.»

وحدقت جاني به، ثم سألته بصوت يفوق الهمس: «إنك تكرهها، أليس كذلك؟»

فهز كتفيه بما يشبه اليأس، وهو يجيب وقد تلاشى غضبه وهو يعود بذاكرته إلى الماضي: «سبق وقلت لك إن كايث كان يحبها، والآن، وقد ذهب، بقي ولداه. إن أمي

تعيش لأجلهما. وعندما علمت بموت ابنها، لم تصدق ذلك، فقد مزقها ذلك الخبر اشتاتاً، ولكن العناية بطفليه أخذ يشفيها يوماً بعد يوم. وغالباً ما يأتيان إليها.»

ونطق صوته بالمرارة وهو يتابع قائلاً: «إن تينا تحب الحياة الراقية. وإلى جانب كونها أرملة ثرية، فإن والدها ثري جداً وذو نفوذ كبير. فإذا خطر لها أن تنتقل إلى أي مكان لتمنع والديّ من حقهم في رؤية الطفلين، فسيحدث بيننا، عند ذاك، خصام طويل الأمد أمام المحاكم. لاستعادة هذا الحق.»

فتساءلت جاني بصوت مرتفع: «أمن الممكن أن تفعل مثل هذا؟»

فأجاب: «نعم. ستفعل ذلك دون شك.» وفجأة بان عليه التعب الشديد وهو يجلس على الكرسي أمامها متابعاً قوله: «ومما يدعو إلى السخرية المرة هو أنني أنا المسؤول عن تقديم الواحد منهما إلى الآخر.» وعندما أمعنت النظر في وجهه شعرت برغبة قاهرة في أن تتقدم إليه وتواسيه، وشعرت بغصة لرؤية الألم السافر في وجهه. ولكنها غريزياً، كتمت مشاعرها وبقيت صامتة.

وتابع قائلاً: «على كل حال، أردتك أن تعرفي كل شيء قبل أن تحكمي على والديّ بنفس الطريقة التي تفعل بها تينا.» واستدار إليها بعينين كئيبتين غير منتبه إلى ترددها، وهو يتابع: «إن والديّ شخصان طيبان. خذيها مني أنا.»

أرغمت نفسها على أن تسأله: «هل أنت الذي عرفتهما ببعضهما؟» لم تكن تريد أن تنسى الآلام التي عانتها شهوراً

www.liilas.com/vb3

طويلة، ولا الأذى الذي سببه لأسرتها هذا الرجل ومؤسسته. ولكنها الآن تشعر بكل هذه المشاعر تتلاشى من نفسها وهي تشعر بالحزن الذي يكابده والذي كان من شدة احساسها به أن شعرت بألم حقيقي في صدرها.

فأومأ برأسه ببطء، وهو يريح ظهره إلى الخلف وقد أغمض عينيه، ثم أجاب: «لقد كنت قابلتها قبل ذلك بشهور، أثناء وليمة غداء كان أبوها قد أخذها إليها. كانت وليمة عمل ومرح، كما تعرفين.» ولم تكن جاني تعرف، ولكنها لم تظهر ذلك وهو يتابع قائلاً: «لقد دعوتها إلى فنجان قهوة، بعد ذلك، مرة أو مرتين. وأخذتها مرة إلى المسرح. وانتهى الأمر.»

فقالت وقد أدهشها أن تشعر، لما سمعته، بما يشبه الغثيان: «لقد فهمت.»

وتابع قائلاً: «كنت، وكايث، نتناول العشاء معاً ذات ليلة، بعد مداولة عملية طويلة كنت أثناءها أحاول دمجه في الشركة معي بعد إذ ابتدأت احواله المهنية في التراجع، عندما مرت تينا بمائدتنا صدفة. وبدا أنهما انسجما معاً من أول لحظة، فقد كانت تمثل الفتنة نفسها.» والتوى فمه بمرارة لاذعة وهو يقول ذلك.

وسألته بحذر بينما الألم يغزو قلبها: «وأنت؟ ألم يضايقك ذلك؟»

ففتح عينيه وهو يستقيم في جلسته ببطء وهو يجيب: «ماذا؟ يضايقني؟ وما الذي يجعلني اتضايق؟ لقد كانت بالنسبة إليّ من جملة المعارف العاديين. وقد أدهشني أن تكون من النوع الذي يحبه أخي عندما تعرف إليها. وقد كان

رأينا، أنا وهو، في النساء واحداً، حتى تعرف إلى تينا. وقد ظننت أنه سيرى...» وسكت.

فقالت تستحثه: «يرى ماذا؟»

فأجاب وهو يهز كتفيه: «يراها على حقيقتها.»

فقالت: «كما رأيتها أنت.»

وفجأة، انقشع امامها كل شيء وهي تحدق في ذلك الوجه المغضن الجذاب أمامها، شاعرة بمنتهى الحيرة إذ تفكر في أن هذا الرجل مع دهائه وفطنته البالغين، يمكن أن لا يشعر بما هو تحت أنفه مباشرة فقد كانت تينا غارقة في حب كين ستيل. فكان، من ثم، العداء الذي لم تستطع إخفاءه نحو تلك الفتاة التي أحضرها إلى منزله أيام العيد، بينما كانت هي تتوقع جمعاً عائلياً دافئاً. لقد كان عدم رضائها عن حياتها الزوجية عموماً، ومعاملتها تلك لزوجها أثناء حياته، كل ذلك يدل على حقيقة واحدة وهي أنها تزوجت الرجل غير الملائم لها وأنها كانت تعلم ذلك. فما الذي دفعها إلى الزواج من كايث في الوقت الذي كانت تريد فيه أخاه؟ وساور جاني العجب من نفاق البشر هذا. هل كان ذلك لكي تتمكن من البقاء بجانب كين؟ أن تبقى على الهامش في حياته بدلاً من أن تكون في القلب؟ وكايث؟ هل كانت لديه أية فكرة عن أن القالب الذي كانت تينا تحاول أن ترغمه على أن يظهر به، كان مجرد نسخة كاريكاتوريه عن شخصية أخيه... الهيمنة، القوة، القسوة، وهذه الصفات هي التي كانت تخلب لب تينا؟ وفكرت ساخرة، في وصف كين لها بأنها تتخبط في شرك مظلم.

وقال فجأة: «حسناً، إنك تعلمين الآن.» وظنت للحظة، أنه

www.liilas.com/vb3

قرأ أفكارها، لتدرك، بعد ذلك، أنه كان يشير إلى ما كشفه لها عن مسألة زواج شقيقه ولماذا تتسامح الأسرة، الآن، مع تينا. هل لأن كين كان يعرف شعور تينا ذاك؟ ونظرت إلى وجهه القاتم بإمعان. وكان من المستحيل أن تعرف الجواب. فقد كان من الهدوء ورباطة الجاش، شأنه على الدوام.

وقال: «ليس هناك من يمكنه أن يقنعني بأنها لم تحطمه في النهاية، ولكن لم يكن ثمة ما يمكنني القيام به تجاه ذلك. إنني لا أعرف مقدار ما أخبر كايت أمي عن ذلك عندما كان حياً، ولكنني لا أظن أن ما أخبرها به كان كثيراً. وهو لم يطلعني على سره إلا في النهاية عندما تملكه اليأس.»

فقالت بسرعة: «ولكن، ألم تكن قريباً منه فتشعر بما كان يعاني؟»

فأجاب: «لقد كنت...» وسكت فجأة، ثم عاد يقول: «نعم معك حق.» فنظرت إليه متفحصة. لقد كان على وشك ان يقول شيئاً آخر. كانت متأكدة من ذلك. وقال: «إنه لم يتوقف عن حبها لحظة واحدة.»

وهز رأسه ببطء وهو ينظر في عينيها البنيتين المنزعجتين، قائلاً: «هل يمكنك أن تتصوري حباً كهذا؟»

فأجابت: «وهل يمكنك أنت؟» كانت تعلم أن هذه هي طريقة جبانة في التملص من الجواب، ولكنها، لسبب ما، لم تشأ أن تدلي برأيها. فقد سرى في اوصالها شعور شامل بالذعر، أوشكت معه على الإغماء.

وأجابها هو بلهجة بان فيها التوتر: «نعم، إنني استطيع تصور ذلك.»

شعرت جاني بكيانها يتمزق لإزاء العواطف المتضاربة التي تملكتها. فقد ارادت أن تعتبره رجلاً في منتهى القسوة وانعدام الشفقة. فقد كان هذا هو الشعور الوحيد الذي يشدها إلى الخلف. ولكنه كان دوماً يصل إلى ما يريد. وكان التفكير في إنشاء علاقة معه، ما هو إلا قفزة إلى المجهول ليس في استطاعتها مواجهة نتائجها بعد... ماذا لو كانت هي على خطأ؟ بل، لتفترض أنها على خطأ؟

ونهض واقفاً وهو يقول: «هل ستتناولين العشاء؟» ونظرت إليه لتجد ذلك القناع الجامد الذي اعتاد أن يسبغه على ملامحه، قد عاد الآن إلى موضعه. ووضعت يدها في يده الممدودة إليها، ومشت معه إلى غرفة الطعام، والدوار يمتلكها، لتجد الآخرين مجتمعين حول مائدة غاية في الروعة والفخامة، وما أن استقرت في مقعدها، حتى شاهدت، للحظة واحدة، نظرة من تينا إليها... كانت نظرة مليئة بالحقد والغيرة السافرة مما اكدت ظنون جاني بها، ولكنها، تينا، سرعان ما خفضت بصرها عندما رأت تحديق جاني بها وقد انسدل شعرها الأشقر كستار يحجب وجهها الشاحب.

كان الطعام لذيذاً حسن الطهو، ولكن جاني لم تستسغ منه شيئاً. لقد كانت تأكل وتبتسم وتتحدث، كل ذلك بشكل آلي، فقد كانت أفكارها مركزة على ذلك الرجل الأسمر الكبير الجسم والذي كان جالساً على رأس المائدة. كان هذا الشيء الذي عرفته هذه الليلة، كأنه قنبلة موقوتة، أو بركان يفور ويغلي لكي ينفجر، في النهاية، مدمراً الأسرة باجمعها. كان من الواضح أن كين قد أحب أخاه كثيراً.

www.liilas.com/vb3

ونظرت إلى وجهه وهو يلقي بابتسامة مجاملة لنكتة طويلة ألقاها والده. ما الذي كان سيحدث لو أن تينا كانت قد اعترفت بالدافع الملتوي وراء معاملتها تلك لزوجها؟ كيف كان سيتقبل هذا؟

وزجرت جاني نفسها بغضب لاسترسالها في التفكير بهذا الشكل وهي ترى والدة كين تكرر على مسامعها شيئاً قالته لتلفت انتباهها، وحدثت نفسها بأن لا شأن لها هي، بكل هذا. فلتكف إذن عن التفكير به، إذ لا شيء من هذا يهمها، ولكن، هو يهمها فعلاً. فهي لا تريد له الضرر. واتسعت عيناها البنيتان إذ وصلت في تفكيرها إلى هذا الحد. آه، لا بد لها من أن ترحل عن هذا المكان، وفي أسرع وقت ممكن.

وقال لها كين ببساطة، وهما يسيران خلف الآخرين عائدين إلى غرفة الجلوس: «أتحبين الاستمتاع ببعض الهواء الطلق؟ فقد يعيد الاحمرار إلى وجنتيك.»

فنظرت إليه بذهول، قائلة: «الآن؟ إن الظلام شديد.»

فابتسم ساخراً وهو يقول: «نعم، إنه لكذلك ولكن بإمكانك أن تدثري جسمك جيداً منعاً للبرد، كما أن الحديقة منارة جيداً.»

فقالت موافقة بشيء من التردد: «لا بأس.» لم تكن تريد أن تسير معه في الظلام، ولكنها أيضاً لم تكن تريد أن تمضي ساعة أو ساعتين في حديث مؤدب تسوده معارضة تينا الجارحة. وتابعت قولها: «ولكن...» وسكتت فجأة.

فقاطعها وفي عينيه نظرة عتاب: «ولكن ماذا؟ تعنين أن سلوكي يجب أن يكون غاية في الاستقامة، أليس كذلك؟»

فرفعت نظرها إليه تقول بلهجة دفاعية: «إنه شيء كهذا، وأنا لا أطلب الكثير. أليس كذلك؟»

فأجاب بصوته العميق بلهجة تحوي الحسرة مما أرسل رعشة في أوصالها: «إنك لن تعرفني أبداً. ولكن...» وسكت ساخراً ثم أضاف: «إنني متأكد من أن هذا أمر حسن بالنسبة إليّ. والآن إذهبي واحضري معطفك.»

وعندما عادت إليه في القاعة بعد عدة دقائق، كان واقفاً ينتظرها، وكان جسمه كبيراً قاتماً يوحي بالسيطرة في معطفه الأسود وشعره الكث الذي كان يلمع في النور الذي فوق رأسه. وناولها وشاحاً من الكشمير الرمادي قائلاً: «ضعي هذا أيضاً، فالصقيع شديد.» وعندما لفت الشال حول عنقها، اشتمت رائحته المميزة، فسألته: «أهو يخصك؟»

فأجاب وهو ينظر إليها بدهشة: «نعم، هل لذلك أية أهمية؟»

فخفضت نظرها مرتبكة وهي تجيب: «كلا.» إن ذلك سيقودها إلى الجنون... إلى الجنون.

وعندما أصبحا خارج المنزل، شهقت قليلاً لبرودة الهواء. فوقفا لحظة على قمة السلم، يتنفسان الهواء البارد هذا، بعد الدفء في الداخل، ووقع بصرها على الأشجار والمزروعات وقد غطاها الثلج لتبدو تحت أنوار الحديقة خارقة الجمال. وكان الجو رائعاً والسماء سوداء تمثلت لها غطاء هائلاً من القطيفة السوداء المرصعة بالنجوم المتلألئة، ما أسبغ على الكون سكوناً مشحوناً بالأسرار.

وسألها كين برقة وهو يمسك بذراعها: «أليس هذا أفضل من البقاء في الداخل؟»

www.liilas.com/vb3

فأجابت وهما يشرعان في السير: «نعم.» وكانت أنفاسها تكوّن غيوماً بيضاء في ذلك الهواء البارد. وكان وجوده بقربها، بقامته المرتفعة ورجولته المتدفقة المسيطرة، في ذلك السكون الجذاب، كان كل ذلك يأخذ بأنفاسها ويسارع في خفقان قلبها.

كانت الأرض أمامهما مكسوة بالعشب المقصوص تخترقها الممرات الضيقة وتحيط بها الأشجار مما جعلها تبدو رائعة الجمال. وبعد دقائق، وصلا إلى الحديقة التي كانت تقوم فيها شرفة تتسلق عليها الطحالب وتحيط بها شجيرات قصيرة مشذبة. وقال كين بهدوء وهو يشير إلى منزل صيفي في نهاية الحديقة: «ذلك مكان رائع في الصيف.» وكان المنزل صغيراً مختفياً بين اشجار الليلك المتدلية. وتابع يقول: «اكثر هذه الشجيرات تعبق منها روائح عطرية تجذب إليها النحل والفراشات من اماكن بعيدة، هذا إلى مجموعة طيورنا المعتادة.»

فسألته بدهشة إذ لم يخطر ببالها أنه يمكن أن يتذوق جمال الطبيعة ولو في ابسط مظاهرها: «وهل تأتي أنت إلى هذا المكان؟»

فأجاب: «إنك مصممة على عدم قبول أية فكرة حسنة عني. أليس كذلك؟» وجعلتها لهجته الفاترة الجامدة تظن أنها لم تسمع كلامه جيداً.

وقالت: «كين...»

فقاطعها بلطف وهو يديرها لتواجهه: «متى ستلقين ولو بجزء من هذا الستار الذي تقيمينه بيننا؟ إن عليك أن تفعلي ذلك، إن عاجلاً أم آجلاً.»

فحدقت به وقد بدت عيناها واسعتين في ظلال الحديقة تلك بينما الهلال يشرف عليها من بين النجوم، ثم أجابت: «ولماذا؟»

فقال ببساطة: «لأنني لا أستسلم أبداً. إنني أريدك يا جاني، ويجب أن تدركي ذلك، وأنا دائماً أحصل على ما أريد.»

ولم تستطع أن تقرأ شيئاً في تلك العينين اللتين كانتا تحدقان فيها، فقالت: «دائماً؟ لا يمكن هذا.»

فأجاب بلهجة لا أثر فيها للفكاهة: «دائماً.»

فقالت: «لا عجب إذن، ان تبدو بكل هذه الغطرسة.» ووضعت في صوتها لهجة عدائية، واستطردت تقول: «لقد حان الوقت لكي تعرف انه لا يمكنك فعل ما تريد دائماً، يا كين ستيل.»

فسألها بهدوء: «أهذا هو السبب في أنك لا تتحلين بها؟ أم أن هذا دليل على التمرد؟»

فحدقت به لحظة وقد بدا عليها عدم الفهم، ثم ما لبثت أن أدركت ما يعني فقالت: «ماذا؟ آه، إنك تعني السلسلة، أليس كذلك؟»

فأومأ برأسه وبدا على شفتيه ابتسامة مرح لم تصل إلى عينيه، وهو يقول: «نعم، إني أعني السلسلة.»

فقالت بسرعة وهي تحاول أن تستوعب ما يكمن وراء مظهره البارد هذا: «يجب أن تدرك أنني لا استطيع قبولها، إذ بالنسبة إلى القصة التي رويتها لي عن جدتك وغير ذلك، لم يكن لك الحق ابداً أن تعطيني إياها.»

فقال بلطف: «لقد ابتدأت أتعب من هذه التعليمات عما

www.liilas.com/vb3

يجب أن أفعل ولا أفعل. إنك حقاً أنثى صغيرة متسلطة، أليس كذلك؟» وقال كلماته الأخيرة بلهجة أدنى إلى الملاطفة منها إلى الزجر، مما جعل قشعريرة خفيفة تسري في اوصالها، كما زاد في احتقارها لنفسها لهذا الضعف نحوه الذي يبدو منها. هل يتملك كل امرأة مثل هذا الشعور أمامه؟ إن هذا، إذا كان صحيحاً، لا يدهشها. لا يدهشها ابداً. فلا عجب في أن تتكوّن لديه كل هذه الغطرسة.

وقال بصوت خشن عميق: «تعالي. فليس ثمة سوى طريقة واحدة اعرفها هي كفيلة بإسكاتك.»

وعندما مد ذراعيه نحوها، تراجعت هي إلى الخلف حتى كادت تقع، وهي تقول: «كلا يا كين. لا أريدك أن تلمسني. إنني أعني ما أقول.»

فقال: «هذا ليس صحيحاً.» ونظر إليها مفكراً وقد بدا وجهه القائم في الظل، مغضناً بشكل واضح تتألق في وسطه عيناه الزرقاوان بشكل غريب.»

فأجابت: «انك متأكد من نفسك، أليس كذلك؟» كانت غطرسة هذا الرجل تخطف منها الأنفاس. وتابعت تقول: «اظن كل نساءك يرتمين بين ذراعيك لدى غمزة واحدة من عينك. حسناً، ليس هذه المرة. إنني اكره نمط حياتك، أخلاقك وكل شيء يتعلق بك. هل تسمعني؟» كانت تعرف انها ترغم نفسها على ابداء هذا التمرد، والنطق بهذه الكلمات القاسية، لتتغلب على ذلك الضعف المتزايد فيها الذي كان يدفعها إلى الاستجابة لما يريده.

فاستند إلى جذع شجرة تفاح قديمة وهو يراقبها بعينين ضيقتين، قائلاً بعنف: «كلامك واضح تماماً. هل تعنين

انني، إذا أمسكت يديك فإنني لا استطيع أن أحملك على الاستجابة خلال خمس دقائق؟»

فأجابت بفتور: «انك تتحدث عن الرغبة. وأنا لا يخامرني الشك لحظة واحدة في انك خبير في هذا المجال.»

فانحنى لها شاكراً وهو يقول بسخرية: «هل هذا مديح؟»

فأجابت بوهن: «لم يكن هذا ما قصدته، وأنت تعرف هذا. ولكن، مما سمعته، ليس في ذلك أي خطر. ولكنني لست من النوع الذي يحب العلاقات العابرة.»

فقال: «مما سمعته؟» واقترب منها إلى درجة رأت فيها فمه كخط صارم في وجهه، وهو يتابع قائلاً: «ما الذي سمعته بالضبط يا نحلتي النشيطة؟»

فأجابت: «هذا وذاك.» وأخافها توتر ملامحه، فأدارت رأسها بسرعة نحو المنزل، وهي تتابع قائلة: «إنني عائدة فأنا أشعر بالبرد.»

فقال عابساً وهو يديرها نحوه مرة أخرى: «أخبريني أولاً، ما الذي سمعته، وممّن؟»

فأجابت: «من المعروف أنك تحب النساء، الكثير من النساء.» وكانت قبضته على ذراعها تؤلمها، ولكنها لم تشأ ان تفصح عن ذلك، وتابعت تقول: «هل تنكر هذا؟»

فقال مكشراً بشكل جعله أشبه بذئب يتأهب للإنقضاض: «من المعروف؟ هل تستمعين إلى الشائعات؟ وهل أنت من الغباء بحيث تصدقينها؟»

فأجابت بلهجة لاذعة وهي ترفع رأسها: «هل تنكر أنت هذا؟» ولكن الوهن الذي كان يغزو اعضاءها جعلها تتمنى لو يستنكر قولها هذا تماماً.

www.liilas.com/vb3

وقال باختصار: «إنني لن أتنازل حتى إلى اعتبار مثل هذا الهراء. وإذا أنت حاولت أن تصدقي ما يقوله بعض رجال الصحافة، يا جاني، فسرعان ما سيوسخك الاحتكاك بهم.»

فقالت: «ولكن، هناك شخص...» وسكتت فجأة، ثم تابعت تقول: «كان هذا الكلام من مصدر حسن.»

فقال: «حسناً، لو كنت مكانك لكنت اكثر حذراً في اختيار معارفي في المستقبل.» وأضاف ساخراً: «إنني لم اكن ميت الشعور، منذ البلوغ، بالنسبة إلى النساء، ولكنني لم اكن من محبي النساء كذلك، كما تظنين. ولكن هذه شؤوني الخاصة على كل حال، وهي لا تعنيك بشيء، أليس كذلك؟ وهذا ما سبق وأوضحته أنت نفسك.» كان يتحدث ببرود قاتل.

وحدقت فيه لحظة دون أن تستطيع الجواب. فقد كانت فكرة انها لن تقابل أبداً رجلاً مثله، هذه الفكرة كانت تحتل ذهنها وتفكيرها. لقد اتخذت كلمة (غطرسة) بالنسبة إليه، بعداً جديداً. فهو بارد، قاسٍ لا يعرف الشفقة كما يبدو، أولئك الذين يصطدمون به، ثم... وتعود علامة الاستفهام أقوى مما كانت. كانت، ثمة اوقات يبدو فيها بصورة مختلفة، فيكون خلاباً، عاطفياً دافئاً وغاية في الرقة...

وقالت: «كين...»

فقاطعها: «لا أريد شيئاً آخر، هذه الليلة، يا جاني، إنني في الحقيقة لا أريد أن أقوم تجاهك بأي تصرف قد يتطور إلى ما نندم عليه نحن الاثنين. إن فيك ميزة غامضة، وهي أنك المرأة الوحيدة التي جعلتني أكاد أخرج عن طوري كما

أنا الآن بالضبط. وبرغم أن حرارة الجو هي عدة درجات تحت الصفر، فإن الذي تعرضينني إليه هو أقوى من أن استطيع مقاومته، ولكن ذلك سيكون خطأ من نواح عديدة، إذ أريد البرهان، أولاً، على شيء أنت غير مستعدة، بعد للاعتراف به.»

فقالت: «ولكن...»

فقاطعها: «هيا بنا.» وأمسك بيدها بقوة بعيدة عن الرفق، واتجه بها صوب المنزل وقد ساد العبوس والتوتر ملامحه.

وعندما كانت تهرول خلفه بخطوات مهتزة، كانت كل طاقتها مركزة على تجنب الإنزلاق على الأرض المكسوة بالثلج فتجد نفسها في وضع أسوأ من وضعها الحاضر.

ولكن، بعد ذلك في تلك الليلة، وهي في سريرها آمنة دافئة أخذت تستعيد حديثهما في الحديقة إلى أن تشوش ذهنها وأوشكت على البكاء، وعندما جاءها الهر «جونيبر» ليرقد معها في الفراش بجسمه الضخم الدافىء وخريره يبدو وكأنه في جوفه نموذجاً مصغراً لقطار الاكسبريس، تمثل لها كالقشة التي قصمت ظهر البعير، كما يقال. وإذا بالهر المذهول يراها تحتضنه بعنف وقد تبللت فروته في لحظة من دموع جاني التي كانت تذرفها، لتنام بعد ذلك بطريقة لم تعهدها منذ كانت طفلة صغيرة.

www.liilas.com/vb3

الفصل السابع

كان الغداء، في اليوم التالي للعيد، بطريقة «البوفيه» وعندما كانت جاني تملأ صحنها من المائدة الحافلة إذا بها تجد تينا بجانبها. وكانت المرأة الشقراء ترمق جاني بعينيها الحادتين، وهي تقول: «يبدو أنك تحسنت تماماً.» وكانت لهجتها بعيدة عن الرضى وهي تستطرد قائلة: «إننا لم نتعود على مثل هذه التمثيليات المحزنة في العيد. لقد اخبرتني الخادمة جين أن منظر كين حين اصطحبك عشية العيد، كان كأنه مشهد من فيلم قديم... أشبه ما يكون بمنظر شريدة ضالة انقذها بطل أحلامها.»

فاستدارت جاني تواجه تينا وتحدق في وجهها الجميل القاسي. وهي تقول: «هذا ليس صحيحاً. فأنا لست شريدة كما أن كين لم يكن بطلاً في أي من أحلامي، ونعم إنني اشعر بالتحسن التام في صحتي الآن.» وكان هذا كذباً، فقد كانت ساقاها تشعران بالضعف بشكل غريب، ومازالت تشعر برأسها، أحياناً، وكأنه يغادر جسدها، ولكن، ليس ثمة ما يجعلها تشكو ضعفها لامرأة لها مثل هاتين العينين الوقحتين اللتين لاتفتآن تراقبانها.

وقالت تينا تحدثها وهي تتبعها إلى الأريكة الضخمة بجانب النافذة في الطرف الأقصى من الغرفة، وصحنها في يدها: «مثل هذه الأساليب المكررة لاجتذاب الرجل، هي شيء غاية في الذكاء، إذ من المؤكد أنها تجتذب اهتمام

الرجل... فالرجال، عادة، ساذجون يخدعون بسهولة.»

فقالت جاني بصراحة وقد شعرت بالتعب من لعبة الهر والفأر التي تمارسها هذه المرأة: «هل أنت دوماً كريهة بهذا الشكل؟ إن هذا ممل حقاً.»

فقالت تينا بلهجة تشابه برودة الثلج، رغم الاحمرار الذي علا وجنتيها، ما أدركت معه جاني بأن قولها هذا قد أصاب المرأة في الصميم، قالت: «أحقاً؟ حسناً، إنني أعتذر لكوني مملة، يا عزيزتي، ولكن ربما أنت غير معتادة على دقائق الأحاديث الاجتماعية. لقد فهمت أنك سكرتيرة صغيرة في مكان ما.» ورفعت تينا حاجبيها المخطط بعناية مستهزئة.

فقالت جاني بهدوء: «إنني أعمل لأعيش، إذا كان هذا ما تقصدينه، وأنا أستمتع بكل لحظة من عملي. فهل تمنحك حياتك أي سرور أو إشباع؟» كانت هذه أيضاً ضربة في الصميم، ولكنها كانت تشعر بأن هذه المرأة تستحقها.

وعندما تراجعت تينا وقد توترت شفتاها الرقيقتان الجميلتان، وضاقت عيناها الزرقاوان، رأت جاني يديها تنقبضان في حضنها بشدة.

وفكرت جاني في أن تينا، لا شك، تتمنى أن يكون عنقها هي ما تقبض عليه هذه المرأة بيديها. وانتابتها رجفة من التهكم وهي ترى المرأة الأخرى تميل إلى الأمام قائلة بصوت أقرب إلى الهمس: «لا بد أنك تظنين نفسك في منتهى المهارة إذ تجذبين نظره ليدعوك إلى قضاء العيد معه، أليس كذلك؟ حسناً، لا تدعي الآمال تضللك، أيتها الآنسة الذكية. فقد يتصدق عليك آنياً، ولكنك، في النهاية، تسلية أخرى، بالنسبة إليه، سيكون مصيرها نفس مصير

www.liilas.com/vb3

الأخريات. فأنت لا تملكين شيئاً تتمكنين معه من الاحتفاظ به.»

فردت عليها جاني قائلة: «ولماذا كل هذا الاهتمام منك، على كل حال؟» وكانت جاني تريد أن يكون صوتها بارداً واضحاً، ولكن حقد تلك المرأة السافر قد أثار غثيانها، فاستطردت قائلة: «إن حياة كين الخاصة ليست من شأنك أبداً.»

فأجابت تينا: «هذا ما تظنينه أنت.» وكان في اللهجة المتوعدة في صوتها، والنظرة المتسلطة في عينيها، ما زاد من القشعريرة في جسد جاني.

وفي تلك اللحظة، بدا الشخص، موضوع الحديث عند عتبة الباب. وضاقت عيناه وهو يلقي بنظره إلى المرأتين ليرى منظر وجه جاني. لقد كان منفرداً في مكتبه منذ الصباح الباكر، مما أثار اشمئزاز والدته. وقد أوضح والده السيد ستيل رأيه ذاك بصراحة، في ذلك الصباح، فقالت له: «في الحقيقة، يا كين، إن هذه الأيام هي فترة إجازة.» وذلك عندما اعتذر عن مرافقة الآخرين إلى النزهة التي كانوا قد صمموا عليها بعد انتهاء قهوة الصباح. واستطردت تقول: «هل أنت مرغم على العمل؟»

فأجاب: «أخشى ان يكون الأمر كذلك.» ثم ألقى نظرة جافة حذرة على جاني ثم سألها: «هل عندك مانع؟»

وأجابت على الفور: «أنا؟ كلا بالطبع.» وكانت النتيجة نظرة ساخرة طويلة منه جعلت قلبها يخفق بضيق.

وقال بجفاء: «كلا، هذا ما ظننته.» وكان المعنى واضحاً لها وحدها، واستطرد يقول: «أخشى أن عندي عملاً لا يحتمل التأجيل.»

وقال أبوه بصوت متفهم: «أهي قضية كولينز؟»

فأومأ كين برأسه بهدوء، قائلاً: «نعم، ولكن لا تدع انشغالي هذا يفسد عليكم بهجة نهاركم.» واستقرت نظراته على رأسي الولدين الصغيرين اللذين جلسا ينهيان فنجاني اللبن الدافىء، وتابع قائلاً: «استمتعوا بالوقت مع الطفلين، فحوض السباحة قد أدفىء حتى أصبح كحوض الحمام. ولكن ربما تفضل ان تأخذهما بعد الظهر.»

فأومأ أبوه برأسه ببطء قائلاً بهدوء: «لا يمكنك التخلي عن ذلك، يا بنيّ. اعرض عليه مبلغاً جيداً واترك الأمر على هذا الشكل، فليس في إمكانك أن تساعد كولينز إذا لم يوافق جون.»

فقال كين: «سنرى.» ورقت عيناه وهو ينظر إلى أبيه قائلاً: «استمتعوا بنزهتكم.»

لقد ضايقت جاني ذكرى هذا الحديث، طيلة الصباح، والآن، وهي تنظر في عيني كين من فوق رؤوس الحاضرين رأته قادماً رأساً إلى حيث كانت تجلس.

وسأل تينا وقد استقرت عيناه على وجه المرأة الشقراء الرائع الجمال الذي كان الآن قد عاد إلى طبيعته الباردة المسيطرة، سألها قائلاً: «هل تعرفتما إلى بعضكما البعض جيداً الآن؟»

وأجابته زوجة أخيه بمرح: «نعم.» وكان على فمها القاسي شبه ابتسامة وهي تنظر إلى وجهه الداكن سرعان ما تلاشت وهي ترى التعبير الذي بدا في عينيه الزرقاوين، فتابعت تقول: «إنني سأذهب لأساعد والدتك إيليان مع الطفلين.»

www.liilas.com/vb3

فقال كين عابساً وهو يقبض على ذراع تينا حين همت هذه بالنهوض: «لو كنت مكانك لما كلفت نفسي عناء ذلك، فقد اعتادت هي رعايتهما بمفردها. فتابعا حديثكما الذي انقطع بتدخلي الثقيل.»

فقالت تينا ببرود وهي تلقي نظرة سريعة على وجهه: «لم يكن ثمة شيء مهم. مجرد حديث فتيات، إنك تعرف.»

فقال وهو يشدها إلى مقعدها بشكل عرفت معه أنه يعني ما يقول: «ليس تماماً، إنما قد تتفضلين باعلامي.»

فقالت جاني بعد لحظات: «كنا نتحدث عن محاسن الصدف إذ عثرت عليّ عشية العيد.» واحمر وجه تينا ببطء. ولكن مسارعة جاني إلى الجواب لم يكن نتيجة أيّ شعور رقيق نحو تلك الشقراء. ذلك أنها سبق ولاحظت أن والدة كين تنظر من بعيد إليهما، في خلوتهما تلك، عدة مرات في الدقيقة الأخيرة، وأدركت أن السيدة المسنة قد شعرت بشيء ما غير مستحب بين المرأتين ووالدة كين كانت، دوماً، في منتهى انزعاج.

فقال كين: «فهمت.» وأرخى قبضته عن ذراع تينا عندما ابتدأ أحد الطفلين بالبكاء، وتابع يقول: «حسناً، بإمكانك أن تغيري برنامجك، يا تينا، وتذهبي إلى الأطفال.» وتراجع إلى الخلف ساخراً، لتتمكن المرأة الشقراء من النهوض، وهو يستطرد: «وربما سنجد الوقت لتبادل الحديث فيما بعد.» وكان ذلك أمراً وليس تمنياً. وللحظة واحدة، اشتبكت الأعين الزرقاء في معركة تجلى فيها الحقد.

وعندما ذهبت تينا، وهي تتمتم باستياء، وقد توترت ملامحها، رفعت جاني نظرها إلى كين بحذر وسألته: «كيف

أمضيت هذا الصباح؟» وغاص قلبها بين ضلوعها وهي ترى هذا الوجه المغضن الجذاب يراقبها بشدة. لقد دبت الحركة في الغرفة لحظة دخوله إليها، كما بدا لها. وشعرت باليأس وهي ترى نفسها عاجزة عن مواجهة كل هذه المشاعر التي كانت تقلب كيانها رأساً على عقب.

وقال بعنف وهو يجلس إلى جانبها: «لقد كانت تضايقك، أليس كذلك؟ إنها امرأة خطرة.»

فأجابت مازحة دون أن تتمكن من النظر إلى وجهه: «إنني بنت كبيرة الآن، وباستطاعتي العناية بنفسي.» ولا بد أن الرجفة التي سببها وجوده قربها قد ظهرت في عينيها.

فأجاب بصوت أجش: «ربما أنا لا أريدك أن تعتني بنفسك، وربما أريد أن أتولى هذه المهمة أنا بنفسي.»

www.liilas.com/vb3

فأغمضت عينيها لحظة وقد تسارعت دقات قلبها وهي تقول: «لا تقل أشياء كهذه.»

فأمسك بيدها وأخذ يفرد أصابعها الصغيرة وهو يجيب: «ولِمَ لا؟ هل يبدو الأمر بهذا السوء؟»

فأجابت: «إنك تعرف شعوري...»

فأسكت صوتها المتهدج بقوله، وهو يشبك أصابعه بأصابعها: «كلا. إنني أعرف ما (تحاولين) أن تشعري به. ولكنك تناضلين ضد شيء هو أقوى منا نحن الاثنين. ثقي بي قليلاً، يا جاني. أنيري شمعة لتمحو الظلام. حطمي هذا الشرك الذي تتخبطين فيه.»

فأجابت بلهجة حزينة: «لا استطيع. لا بد انك تدرك ما أعنيه.»

فقال: «بل تستطيعين.» ولم يكن في صوته رنة ظفر أو

عنف. كان فيه تأكيد عميق أثار منها الأعماق من كيانها رغم كل شيء. وشعرت فجأة بدافع جنوني، كانت قد شعرت به مؤخراً اكثر من مرة، وهو أن تريح رأسها على صدره الرحب. أن تخضع لإرادة أقوى من إرادتها. ولكن هذا سيكون نوعاً من الإنتحار. واستعاد ذهنها كلمات تينا (قد يتصدق عليك آنياً، ولكنك في النهاية، تسلية أخرى بالنسبة إليه، يكون مصيرها نفس مصير الأخريات) لقد صدرت هذه الكلمات عن امرأة حاقدة، ولكنها وجدت صدى في قلب جاني الحافل بالمخاوف. فقد كان رجلاً عملاقاً بين الرجال من نواح كثيرة. فهو قوي ذو سلطة، جذاب إلى درجة لا تصدق، وهو يريدها لفترة عابرة فقط، متوقعاً منها، في النهاية أن تختفي من حياته بكل رشاقة ولطف، شأن نسائه الأخريات.

ولكنها ليست من هذا النوع، وكادت تئن بصوت عال. كلا، وأعادها هذا التفكير إلى عقلها، ما الذي جعلها تفكر بهذا الشكل؟ إن أباها لم يظهر في معاناتها هذه. كيف أمكنها أن تنسى الماضي؟

ووقف ببطء دون أن ينتبه إلى اضطرابها، وهو يقول: «دعيني احضر لك كوب عصير.» وما أن مضى مجتازاً أرض الغرفة، حتى لاحظت مرة أخرى، عدم ثبات خفيف في خطوته سرعان ما أصلحه. وتذكرت فجأة أنها رأت عدة شواهد كهذه أثناء أيام العيد. مرات عديدة بدا فيها هذا الجسم الكبير وكأنه فقد توازنه للحظة خاطفة. وهزت رأسها بعنف. لا بد أنها كانت تتخيل هذه الأشياء.

وفي هذه الأثناء، كانت إيليان، والدة كين، قد أقبلت تجلس بقربها، تسألها: «أخبريني قليلاً عن عملك، يا جاني.» وكانت عينا المرأة المسنة تتألقان بالاهتمام الخالص. وبينما كانت جاني تصف لها عملها، عاد كين ووقف يستمع إلى الحديث.

ومضت ساعة، وبينما كانت جاني لا تفتأ تذكر نفسها بأن لا تلتقي عيناها بعينه اللتين كان فيهما من السلطة ما يمكنه جذبها بهما إليه بشكل لا فكاك منه، وهي بهذا تعطي عن نفسها الانطباع بأنها غاية في ضبط النفس، كانت تشعر في الأعماق بأنها على العكس تماماً.

وسألتها إيليان وهما يحتسيان القهوة في غرفة الجلوس بينما الجو حولهما كان اكثر راحة بعد تواري تينا في جناحها الخاص، سألتها: «هل ستبقين لحضور الحفلة، يا جاني؟»

فرد كين بهدوء ووضوح وهو يتناول من المرأتين فنجاني القهوة الفارغين، ثم يضعهما على الصينية: «إنها ستبقى بالطبع ولو انها لم تعرف عنها شيئاً بعد. وسنذهب في جولة بالسيارة حيث أشرح لك الأمر، إذا كنت تريدين.» قال ذلك وهو يستدير إلى جاني، متابعاً قوله: «ستشعرين بدفء كاف داخل السيارة.»

فقالت بسرعة: «ولكن، ليس بإمكانك أن تترك الجميع.»

فقالت إيليان بحرارة: «هذا هراء. لقد سمعت جورج يخطط لاستعمال حوض السباحة بعد الظهر مع الطفلين، وأنا أنوي أن أنال غفوة قصيرة في غرفتي. وجولة شيقة مريحة بالسيارة ستريحك جداً، يا جاني، ولا حاجة بكما

www.lilas.com/vb3

للرجوع بسرعة. فنحن جميعاً، في اليوم التالي للعيد، نأكل، عادة، متى شئنا.»

وابتسمت جاني بحذر للمرأة وهي تردد قولها: «جولة شيقة مريحة.» متعمدة أن لا تلتقي عيناها بعيني كين. ليس ثمة شيء مريح في الجلوس وحدها مع كين في مكان ضيق.

وعندما تركتهما الأم، وهي تمنحهما ابتسامة مشرقة قال لجاني ببطء ساخر: «هيا... ليس لك أي عذر الآن.»

فقالت جاني بهدوء، وقد تصلبت قليلاً عندما انحنى هو يزيح خصلة من الشعر عن وجنتها: «إنني في الواقع، لا أريد الخروج.»

فقال هازلاً: «بل تريدين. إن قضاء بعد الظهر هذا في صحبة تيننا لا يطيقه إنسان، ولهذا فسأحملك إلى السيارة بالقوة إذا احتاجني الأمر.»

فقالت: «يمكننا أن نذهب للسباحة مع الآخرين. إنني لم أشاهد بعد حوض السباحة في منزلك...»

فقاطعها قائلاً: «إن حوض السباحة لن يهرب منا.» وجفلت وهو يقبض على يدها يرفعها إلى شفتيه وهو يراقبها من خلال عينين متألقتين مضطربتين وهو يقول: «إننا سنخرج في جولة بالسيارة، ياجاني، فاذهبي واحضري معطفك.»

ولم تكن أشعة الشمس الباهتة ترسل أي دفء وهما يسيران، بعد دقائق، نحو الكاراج، ولكن الهواء البارد كان نقياً منعشاً حيث أن المنزل كان يقوم في الضاحية من العاصمة.

وعندما رأت المفاتيح في يده، سألته بدهشة: «هل ستقود السيارة بنفسك؟»

فنظر إليها وهو يقول متهكماً: «وهل في هذا ما يدهشك؟ لقد كنت أقود بنفسي قبل أن اتخذ بيتز في خدمتي. حتى انني كنت امتلك اكثر من دراجة نارية واحدة قبل أن...» وسكت فجأة، ثم عاد يقول بفتور: «قبل حوالي السنتين.»

فسألته ببساطة: «أتعني أنك قررت، في ذلك الحين، أن سنوات فورة شبابك قد انتهت؟»

فأومأ برأسه ببطء قائلاً وقد استقرت عيناه المضطربتان على وجهها المرفوع إليه: «شيء بهذا المعنى.»

وبينما كان هو يفتح باب الكاراج، كانت هي تفكر بضعف، بسهولة انجذابها إليه. لقد جعلها تشعر بالحياة لأول مرة في حياتها، أتراها تعتقد حقاً أنه كان يعلم بكل ما حدث لوالدها؟ وهزت رأسها بيأس وهي تسمع هدير السيارة في الكاراج، وخاطبت نفسها قائلة بضعف، إنها لا تعلم حقاً. إنها لم تشعر قط في حياتها من قبل بمثل هذه الحيرة والارتباك.

ولسبب ما، كانت تتوقع أن ترى السيارة «البنتلي» الفخمة تخرج من الكاراج ببطء، ولكنها لم تتوقع هذه «الجاكوار» الحمراء الأنيقة التي قفزت فجأة إلى جانبها خارجة من الكاراج بأكبر سرعة ممكنة.

وهتفت وهي تجلس بجانب كين: «ما أروع هذه سيارة. لا بد أنها كلفتك الكثير.»

فأجاب بابتسامة عريضة وكأنه يعتذر: «عندما تركت الدراجات النارية، شعرت بأنني بحاجة إلى شيء سريع على

www.liilas.com/vb3

أربع عجلات هذه المرة. انها اسرع سيارة في العالم.»

فابتسمت للزهو الذي لاح على وجهه وهي تقول: «إنها تبدو كذلك، لقد اعجبتني كثيراً.»

فقال: «إذن، فهي تستحق ثمنها.» وكان في صوته من العمق ما أحدث رجفة في جسدها، فنظرت من النافذة بسرعة وقد توترت اعصابها. لو سبق لأحد وأخبرها يوماً، أن مجرد سماع صوت رجل معين يمكن أن يحدث في نفسها مثل هذا التوتر، لما صدقته، وكانت هذه الأفكار تساورها بينما كانت السيارة تهدر وهي تستقيم في طريقها. ولم تستغرب اعجابه بهذه السيارة. فقد كانا متشابهين. فهما الاثنين، متغطرسان، خطران يأسران اللب ويطلبان من الآخرين الطاعة التامة.

وعندما أصبحا في الشارع العام، انعطف كين فجأة إلى اليمين يسير في طريق ضيق بين المزارع. وكانت السيارة تهدر إذ يحدد من سرعتها، وكانت السماء قد ابتدأت تستحيل إلى ذهب متألق بعد أن ابتدأت نفثات الشفق تنتشر في الأفق الواسع. وقال كين وهو ينظر إليها: «إن الوقت متأخر عما ظننت، فها قد ابتدأ الغروب. هنالك مقهى صغير على بعد عشرين دقيقة من هنا. فهل تحبين الذهاب إليه لتناول شيئاً؟»

فأومأت برأسها قائلة دون أن تنظر إليه: «هذا حسن.» كانت لم تتعود بعد على وجودها في مثل هذه السيارة الرائعة الغالية الثمن. ونظرت إليه خفية من تحت اهدابها. وابتدأ قلبها في الخفقان وهي ترى جانب وجهه الأسمر. كان مرتدياً جاكتة من الجلد الأسود المبطن بالفرو وقفازين

اسودين، ما جعل منظر الاثنين، الرجل والسيارة، في منتهى الانسجام.

وعادت إلى ذهنها كلمات تينا الساخرة (شريدة ضالة انقذها بطل احلامها.) ربما لم تكن تلك المرأة مخطئة تماماً. وداخلتها السخرية من نفسها وهي تفكر في أنها لا تصادف أبداً عديداً من الرجال مثله أثناء تطوافها في «السوبر ماركت» أو مكان غسل الثياب في ليالي السبت. وابتسمت لنفسها لهذا التفكير.

قال مازحاً: «بماذا تفكرين؟» ولم تكن هي تدرك أنه كان ينظر إليها.

فاحمر وجهها وهي تجيب: «آه، لا شيء.»

فقال: «جاني. يمكنني أن اعد على أصابع يد واحدة عدد المرات التي رأيتك فيها تبتسمين في حضوري. فاخبريني على الأقل، السبب في ذلك هذه المرة.»

فسألته: «هل تريد حقاً أن تعلم؟ ربما لن يعجبك ذلك.»

فأجاب بفتور: «انني لا أشك لحظة في أنه لن يعجبني هيا، تكلمي.»

فقالت: «كنت أتساءل كم من المرات سبق لك أن زرت مكان غسيل الثياب، في حياتك.» وشعرت لحظة، بسرور سخيف للحيرة التي ظهرت على وجهه. وتابعت تقول: «هذا هو كل شيء. ربما كنت لا تعلم كيف تبدو تلك الأماكن.» ولم يغفل هو عن السخرية التي تضمنتها كلامها.

وأجاب: «لقد حدث ذلك عدة مرات.» واستدار بالسيارة فجأة، إلى مكان يشرف على قرية صغيرة، وقد اصبحت الشمس كرة ذهبية في الأفق، ثم أوقف محرك السيارة

www.liilas.com/vb3

ليستدير ناظراً إليها وهو يقول: «لقد درست في الجامعة مدة ثلاث سنوات، ثم أخذت في التجوال في أنحاء أوروبا لعدة سنوات.»

فقالت: «ولكنك كنت تملك الكثير من المال.»

فنظر إليها بعنف وهو يقول: «كلا. إنني لم أشأ أن اكون مختلفاً عن مجموعة اصدقائي، ولم يكن أي منهم يملك فلساً واحداً. لقد اعتدنا أن ننام على الشواطىء والأماكن العامة.» وبان في عينيه المكر وهو يرى حيرتها، ثم استطرد قائلاً وقد تاهت، الآن، أنظاره مع الذكريات: «لقد امضينا سنوات رائعة.»

فسألته بفضول: «هل مازلت ترى أحدا منهم الآن؟» وكان هو ما يزال يحدق، شارداً في منظر الغروب، وقد استغرقته الذكريات.

www.liilas.com/vb3

وانتبه لسؤالها هذا، ونظر إليها يجيبها: «لقد أصبح تشارلي وبن طبيبين الآن، والاثنان متزوجان ومازال مايك يتنقل من عمل إلى آخر، أما ناثان فقد أصبح لديه أسرة وله ستة اطفال تبعاً لآخر احصاء.»

فنظرت إليه وهي تهتف ضاحكة: «ستة؟»

فأجاب: «وهم يعيشون في منزل صغير في وسط مدينة «نيوكاسل» حيث يعمل بيطرياً.» ثم أردف بهدوء وقد بان في وجهه معنى لم تستطع أن تفهمه: «إنه يعيش أسعد حياة في العالم.»

فقالت: «أحقاً؟» وتلاشت ابتسامتها وهو يومىء برأسه ببطء وعيناه الجذابتان تخترقان اعماقها ثم يستطرد قائلاً: «إنهما يعيشان في حب دائم. ذلك النوع من الحب الذي يأتي مرة واحدة في الحياة.»

وساد سكون عميق وارادت هي ان تجد طريقة تبدد بها ما تخلل ذلك السكون من مشاعر، فقالت تسأله: «هل هؤلاء هم كل اصدقائك.»

فأجاب وهو يدير وجهه عنها وقد توترت ملامحه: «كلا. هناك افضل اصدقائي، وهو جون، في أميركا يكافح، مستميتاً، بكل امكانياته لكي ينقذ عمل أبيه من الذئاب. جون كولينز.» ونظر إليها بعنف وهو يستطرد قائلاً: «المشكلة هي أنه لا يقبل مساعدة لا يستطيع ردها، وبينما والده يستجدي، يرفض هو أية مساعدة مني. إنه وضع غاية في الصعوبة، أليس كذلك؟» وهز رأسه ببطء، متابعاً: «إنها خسارة دون معنى، اسمعي، هل بإمكاننا أن نترك هذا الموضوع الآن؟» وكان الغضب يكسو ملامحه وقد توتر فمه وهو يستطرد: «سأخبرك بكل شيء بالتفصيل، في وقت آخر وليس الآن.»

فأجابت بهدوء: «طبعاً. إنني آسفة إذ لم أقصد التطفل.»

فهز كتفيه بخفة يجيبها: «إنك لم تفعلي ذلك.» ونظر إليها برقة وهو يتابع قائلاً: «إنني، فقط، عديم المهارة في كشف ما بأعماقي. فهذا ليس من عادتي. فلنتابع طريقنا نحو ذلك المقهى، أليس ذلك أفضل؟» ومنحها ابتسامة هزتها من الأعماق.

(لا أريد هذا. لا أريد هذا). كانت هذه الكلمات تتجاوب في رأسها كدقات الطبل وهما يدخلان القرية الصغيرة، والتي كانت عبارة عن مجموعة من البيوت تحيط بمبنى البريد وحانوت صغير، بينما ثمة منحدر في الجانب الآخر، يمر بمنطقة ذات بيوت اكبر، ليستديرا بعد دقائق، مرة

أخرى إلى طريق زراعي تحف به الحقول على الجانبين حيث كانت الأبقار الوديعة ترمق السيارة الفارهة دون اهتمام وهي لا تكف عن المضغ، وفجأة، شعرت برعب هائل. متى يمكنها الهرب من هذا كله؟ وكأنما قرأ هو أفكارها، قال لها بهدوء مخترقاً الصمت الذي ساد بينهما: «إن الحفلة التي ذكرتها أمي هي فقط حفلة صغيرة تنتهي بها أيام العيد. وأنت طبعاً، ستبقين؟»

وبجهد كبير، استطاعت ان ترد بصوت هادىء بارد ووجه خالٍ من التعبير: «اشكرك فأنا لا اظن أنني سأبقى. إن عليّ أن أذهب إلى بيتي. لقد كنت غاية في كرم الأخلاق أن...»

فصرخ بها: «لا تعاودي ذلك مرة أخرى.»

فاحمر وجهها للهجته هذه، وأجابت ساخطة: «لا أعاود ماذا؟»

فأجاب: «ما يسمونه (الهرب من مربض الذئب). إن الحفلة ستقام يوم الأحد. هل يريدونك للعمل صباح الاثنين؟»

ولم تكن هي تعرف بالضبط ما إذا كان جو يريدها أن تعود للعمل ذلك الصباح، أم لا. ولكنها أجابت: «نعم.»

فقال ببرود: «إنني، إذن، سأعيدك إلى البيت بعد انتهاء الحفلة.»

فقالت: «ولكنني لا أريد أن...»

فصرخ بها: «كفى، يا جاني... وأجفلت لهذه الصرخة المفاجئة بينما تابع هو قائلاً: «ما الذي جرى لك يا فتاة؟ إنني أطلب منك البقاء لحضور حفلة وليس لوضعك على خشبة التعذيب. قولي على الأقل، ولو من باب الكياسة، ان ما أعرضه عليك لا يثير اشمئزازك.»

فقالت بضعف وهي ترى مقدار توتر يديه القابضتين على عجلة القيادة: «إن هذا لا يثير الاشمئزاز. ولكن المسألة...» وسكتت ولم تستطع المتابعة.

فقال يسألها: «نعم؟» ولم يظهر من لهجته أية رغبة في مواصلة الحديث.

فتنفست بعمق وقد طفحت عيناها بالمشاعر، ثم قالت بتعاسة: «كل ما في الأمر انني لا اعرف ما الذي تتوقعه مني. إنك تعرف شعوري نحو أبي وكل شيء. انني فقط أجد من الصعوبة أن...» ولم تستطع أن تجد الكلمات المناسبة لتقولها.

فقال بهدوء وعيناه تنظران إلى الأمام: «هل تثقين بي؟»

فأجابت: «أظن ذلك.» ولم تجرأ على النظر في وجهه وهما يسيران في عتمة الغروب. وقد صبغ الشفق السماء خلف الأشجار المنتصبة على جانبي الطريق، مظهراً إياها سوداء الحواشي.

وقال برقة وهو يدخل إلى موقف السيارات أمام المقهى: «لم يكن لي معرفة بأي شيء حول قضية أبيك، عند حدوثها، يا جاني. ويمكنك أن تصدقيني فأنا لا أكذب عليك.»

وبعد أن أوقف المحرك، استند إلى الخلف، ماداً ذراعه على مسند مقعدها خلفها، وقد تسمرت عيناه الزرقاوان على وجهها المضطرب. وتابع يقول برقة بعد مرور عدة دقائق: «إن عليك، عاجلاً أم آجلاً، أن تتمسكي ببعض الفرص التي تسنح لك في الحياة، فلماذا لا تبدأين الآن معي؟ إنني لا أطلب منك ان تعلني اخلاصك وتفانيك حتى الموت في هذه اللحظة. يا جاني. وإنما أن تحاولي أن

www.liilas.com/vb3

تفتحي عقلك قليلاً وتتقبلي كل يوم كما هو. هل هذا صعب عليك حقاً؟»

وسألته فجأة: «ما الذي كان في تلك الأوراق التي كنت احضرتها إليّ إلى المنزل، عشية العيد؟» كان ينتابها شعور ما، بأن ذكر هذه الأوراق هو مهم بالنسبة لهذا الحديث، دون أن تدرك السبب.

وأجاب بصوت هادىء ثابت، وعيناه النفاذتان لا تغادران وجهها: «كان معظمها يحتوي نتيجة تحرياتي. لقد كان ثمة ظلم وقع، ولكنني لم أدرك في البداية، مقدار خطورته. لقد كانت الأوراق مستندات تثبت هذا، وأيضاً تفاصيل المبلغ الذي كان ينبغي ان يتلقاه أبوك. وأنا أريدك ان تأخذي المبلغ، يا جاني.» وسكت فجأة حين بدرت منها حركة احتجاج ورفع يده يسكتها بحركة مسيطرة وهو يقول: «كلا، دعيني أتابع كلامي. عندما يدفع إليك هذا المبلغ، يمكنك أن تتصرفي به كما تشائين... يمكنك ان تتصدقي به للجمعيات الخيرية إذا كنت مازلت تعتبرينه دية أبيك... ولكنني أريدك أن تقبليه.»

فسألته بهدوء: «هل هو ضميرك المتعب؟»

فأومأ برأسه موافقاً وهو يقول: «كما سبق وقلت أنت في أول مقابلة بيننا، لقد تصاعدت الرائحة النتنة من أمام بابي. فمهما كانت الظروف، فإن المعاملات قد أجريت بإسم مؤسسة ستيل، وهذا يعني أنني أنا المسؤول. لم يسبق لي قط أن استعنت بالغش لأسلب شخصاً حقه، ولا أريد أن أضع سابقة بذلك مع أبيك ولما كان ليس باستطاعتي إصلاح الدمار الذي نتج عن هذه القضية، فليس امامي إلا أن اكون

أنه لم يكن لي يد بما حدث. وعليك الآن أن تقرري ما إذا كنت تصدقينني، وكذلك ما إذا كان هذا كافياً لإنارة المصباح؟»

فقالت: «المصباح؟» وحدقت فيه بجمود في النور الباهت الذي كان يملأ السيارة. وعاودتها تلك الرجفة التي تشعر بها عادة في وجوده.

وقال هو برقة: «النور الذي يبدد الظلمة.»

فقالت: «ولكن، لماذا؟» وسكتت فجأة.

فسألها: «لماذا؟»

وشعرت بالقوة تجتاحها. إن عليها أن تسأله. وقالت: «لماذا أنت مهتم بي على كل حال؟ فإذا كنت... أعني أن كل شيء رهن مشيئتك وأية امرأة تختارها...»

فقاطعها: «حسناً، إذا كنت مخطئاً فقوميني. ولكنني متأكد من أنك امرأة أنت أيضاً.» وابتسم بشيء من السخرية وهو يتابع: «فلماذا ليس أنت؟»

فتمتمت بهدوء وقد التهبت وجنتاها لشعورها بالحرج: «إنني لست النموذج الذي يعجبك. أعني...»

فقاطعها قائلاً: «ومن يقول انك لست النموذج الذي يعجبني؟» وكان صوته أجش عميقاً وهو يقول ذلك.

اعتدل في جلسته وهو يسألها قائلاً: «هل لك أن تخبريني بصدق أنك تشعرين اكثر من مجرد مقبولة بالنسبة إليّ؟» ولمعت عيناه الزرقاوان وهو يتابع مازحاً يعبث بأعصابها المهزوزة: «ومنذ هذه اللحظة، ستنفذين كل ما تؤمرين به، يا جاني غوردون. إننا سنذهب إلى المقهى الآن لنشرب شيئاً قبل العشاء، وبعد ذلك ستكرسين نفسك بقية المساء لمرافقتي أنا فقط.» كان يقول هذه

www.liilas.com/vb3

الكلمات مرحاً، وقد بانت في لهجته السخرية من نفسه. ونظرت هي إليه بغضب بدا وكأنه يكاد يمزقها، وذلك إذ اعترفت بينها وبين نفسها، بأن هذا بالضبط ما كانت تخاف أن يحدث لها.

الفصل الثامن

ومر نهار السبت على جاني وهي في حالة انبهار تام يلفها شعور وردي حالم لم تتمكن حتى كلمات تينا الحاقدة المسمومة من أن تفسده. واعترفت لنفسها تلك الليلة، وهي في فراشها وجونيير وكوزموس بجانبها، بأنها تحب كين. لقد كان ذلك ضد كل منطق وكل عقلانية. ولم تكن هي تريد ذلك، ولكن... واحتضنت وسادتها بشدة. كان ذلك فوق مقدورها. أيمكنها حقاً أن تحب شخصاً لا تثق به؟ أخذت تسأل نفسها هذا السؤال عندما فارق النوم عينيها. هل كانت تثق به؟ وتقلبت في فراشها مما أثار ضيق الهرين. إنها لا تعرف. انها لم تعد تعرف شيئاً. ففي لحظة كانت تتمنى لو لم تعرفه أبداً، وفي اللحظة التالية...

وتذكرت تلك النزهة الطويلة سيراً على الأقدام التي قاما بها بعد ظهر ذلك اليوم متنشقين الهواء الطلق المنعش المشبع بعبق الغابة والشتاء، والابتهاج والمرح اللذين تملكهما، وضحكاتهما معاً... وارتجفت فجأة وهي تطلق أنيناً خافتاً من أعماقها. لا بد أنها اكبر حمقاء في العالم. ولكن، كيف بإمكانها أن تتأكد..؟

وأحضرت الخادمة جين لها صينية الفطور صباح الأحد باكراً. وكان يبدو الانشغال على وجهها الفتيّ، وهي تقول: «إن السيدة لانغتون مشغولة بأمور الحفلة منذ الساعة الخامسة، يا آنسة، حتى لكأن الملكة ستزورنا.»

www.liilas.com/vb3

فسألتها جاني بسرعة: «أيمكنني المساعدة؟»

فأجابت جين بذعر: «كلا، يا آنسة. إن متعهدي الحفلة هنا حالياً يقومون بهذا الشيء وذاك، ولكن لا شيء يعجب السيدة لانفتون. إن المدعوين هم فقط أربعون شخصاً أو نحو ذلك. ولا أدري لماذا اهتمامها ذاك كله؟»

وغاص قلب جاني بين ضلوعها وهي تسألها: «أربعون شخصاً أو نحو ذلك؟ كنت ظننت أنها حفلة صغيرة.»

فقالت جين بارتباك: «حسناً، إنها كذلك يا آنسة، فقد سبق وأقام السيد ستيل حفلة كان عدد المدعوين فيها مائتين، وذلك على شرف بعض الضيوف. وكان ذلك في الحديقة في فصل الصيف. إن أربعين شخصاً لا شيء.»

وما أن أنهت جاني فطورها، حتى اندفعت إلى خزانة ثيابها تفتحها لتلقي نظرة على ملابسها. لقد سبق وارتدت هنا الثوب الأسود والثوب الحريري الملوّن، فلم يعد لهما فائدة الآن. وأخذت تتمعن في ملابس المساء القليلة التي كانت السيدة لانفتون أحضرتها إليها من منزلها. ربما هذا الثوب المؤلف من بنطلون حريري أبيض وقميص والذي اشترته من باريس في رحلة عمل ليوم واحد، السنة الماضية، ربما ينفع. وأخرجته من الخزانة ووضعته على الفراش. كان القميص مؤلفاً من اللونين الأبيض والأسود بشكل رائع مثير، وكان ذلك الثوب يغوي أي شخص لشرائه.

وكانت تفكر بذلك وهي تنظر إلى الثوب بإعجاب. سيكون في الحفلة هذه الليلة، دون شك، عدد من الفتيات النحيلات الرشيقات. وستترك شعرها مسترسلاً على كتفيها. وجلست على فراشها تفكر... هذا جنون. إنها مجنونة حتماً.

وقبل موعد الشاي بالضبط، ابتدأ المدعوون يتوافدون. وكانت جاني قد سلمت نفسها لما تقضي به الأقدار. وانتابها شعور بالعجز وهي ترى أن أول ضيفة تدخل من الباب كانت تلك الشقراء التي كانت مع كين أثناء ذلك المؤتمر الصحافي. وفكرت باكتئاب، في أن كل شيء سينتهي إلى الأسوأ. لقد كانت مجنونة إذ ظنت أنه جاد بالنسبة إليها.

وهتف كين وهو يضع ذراعه حول كتفيها: «ها أنت.» وتابع وهي تنظر إليه بدهشة: «آسف لتأخري. فقد جاءتني مكالمة هاتفية.» كان يبدو جذاباً إلى حد مدمر في بنطلونه الرائع التفصيل وقميصه الحريري المنبسط على صدره العريض وكأنه صورة في لوحة إعلانية. لم تكن قد رأته معظم بعد الظهر. فقد لازم مكتبه طيلة الوقت، مرة أخرى، وعلمت من والده أنه مازال يكافح في سبيل اتحاد شركته بشركة كولينز.

وسألته: «هل كانت المكالمة ناجحة؟»

فأجاب ببطء: «ربما، أخيراً. لقد جعلت الأب وابنه يتحدثان معاً الآن، وهكذا ربما يمكننا أن نصل إلى نوع من التسوية والشراكة. إن شعور جون بكرامته فائقة الحد...»

وابتسم ساخراً وهو يتابع: «إياك أن تنتقدي كبرياء الرجولة.»

وأجابت بنعومة وهي ترى المرأة الشقراء تمر من أمامهما دون أي اهتمام منه: «لا يمكن أن افعل حتى في الحلم.»

وقال بعد لحظة: «يبدو عليك الانفعال. إياك.» وحدق في

www.lilas.com/vb3

وجهها بنظرات دافئة وهو يتابع قائلاً: «ستبدين رائعة الجمال، يا جاني، ليس ثمة امرأة هنا تنافسك.»

«دع شيئاً من اللطف والمودة للباقيات منا، يا كين.»

وكان وجه تينا رقيقاً باسماً وهي تلقي بيدها على ذراعه بخفة، لحظة، وهي تمر بهما، ورفع كين حاجبيه بحركة سافرة بعد إذ انضم اليهما زوجان آخران. ولكن، عندما حدقت جاني في أثر المرأة الشقراء الطويلة القامة، اقشعر جسدها، فقد كانت المرأة تنفث سماً، بالرغم من ادعائها الرقة والعذوبة.

وبقيت جاني، طيلة المساء، تشعر بنظرات تينا الحاقدة تتبعها إلى ان وقفت أمام المقصف الحافل بألذ الماكولات تملأ صحنها، فإذا بتينا تتقدم منها لتقف وتهمس في أذنها وعيناها تنفثان الكراهية، قائلة بلهجة تعمدت أن تكون عفوية: «أظن أن كين لا بد قد استولى على قلب كل امرأة في هذه القاعة، على الأقل من هن تحت الثلاثين، وذلك بمختلف الطرق.»

وكانت جاني قد أعدت نفسها لنوع من الهجوم من قبل تينا، ولكن مثل هذا الكلام السوقي تهمسه هذه في أذنها، أذهلها تماماً.

وتابعت تينا تقول بنعومة وهي تنظر إلى الطعام الذي كانت تملأ منه طبقها بحذر: «إنه أمر محير حقاً، عندما تفكرين فيه، أن يبقى على صداقة معهن بعد أن ينهي علاقته معهن. ومع هذا فهو رجل غير عادي قطعاً.» وتناولت بشوكتها قطعة من لحم البفتيك وهي تتابع: «ألا تظنين ذلك؟» ونظرت الآن إلى وجه جاني وقد بانت الضغينة في عينيها.

www.liilas.com/vb3

وأجابت جاني: «لا أظن أن هذا الحديث...»

فقاطعتها تينا بصوت أشبه بفولاذ ملفوف بالحرير: «اتعلمين أنني خرجت معه، أنا نفسي، عدة مرات قبل أن نتقابل أنا وأخيه كايث؟ فأنا أتكلم عن خبرة بالطبع.» ولاحت على شفتيها ابتسامة ذات معنى.

فسألتها جاني ببرود وهي تقابل نظرات تينا اللامعة بمثلها: «أتريدين أن تقولي إنك مررت بأوقات عاطفية معه؟»

فأجابت تينا بخبث: «ما أشد صراحتك يا عزيزتي.»

فقالت جاني بعنف: «لأنك إذا أنت قلت ذلك، فسأدعوك بالكاذبة. لقد علمت من كين أنكما خرجتما معاً ثلاث مرات وهذا كل شيء.»

وعندما تحولت عينا تينا عنها، تقدمت هي إلى الأمام لتقول بهدوء: «هل ستقولين شيئاً مختلفاً؟»

فقالت تينا ببطء بعد فترة صمت: «آه، لقد أصبح كل ذلك قصة قديمة الآن. أليس كذلك يا عزيزتي؟» وضاقت عيناها حتى اصبحتا شقين قاسيين وهي تتابع قائلة: «إنك لا تريدين أن تسمعي كل التفاصيل القذرة، أليس كذلك؟»

فنظرت إليها جاني بوجه عابس وعينين مليئتين بالكراهية وهي تقول: «إنك ذات نفسية مريضة ملتوية، يا تينا.»

«كيف تجرؤين على هذا الكلام؟» وكان وجه تينا الجميل مظلماً بالحقد والغل وهي تقول لها هذا مما أشعر جاني بالغثيان. وتابعت تينا تقول: «كيف تجرؤين على توجيه هذا الكلام إليّ؟ إنني لا أقبل ذلك... وأنا اقول لك...»

فقاطعتها جاني وهي تجاهد لجعل صوتها بارداً واضحاً: «وأنا لن أستمع إلى أكاذيبك وتعريضاتك المشينة، لا الآن ولا في المستقبل.»

وقالت تينا بصوت يهتز عنفاً: «المستقبل؟ المستقبل؟ اتظنين حقاً أنه سيكون لك مستقبل مع كين؟ إنه لن يبقى معك. إنه لا يبقى مع أية امرأة. ألا ترين هذا؟ ذلك لأنه رجل. رجل حقيقي... إنه الرجل الحقيقي الوحيد الذي عرفت. فهو لا يمكنه أن يكون سجين أية امرأة انني اعرف ذلك وأعرف طريقة تفكيره. كما أعرف ما يحتاجه...»

وكانت نظرة الذعر التي لاحت في عيني جاني هي التي أسكتت ذلك الصوت المنخفض قبل ثانية واحدة من انطلاق صوت كين العميق البارد يتكلم من خلف تينا قائلاً: «اذهبي إلى غرفتك يا تينا.»

وعندما استدارت هذه لتواجهه، لم تستطع جاني أن ترى النظرة التي ارتسمت في عينيها، ولكن منظر كين كان مخيفاً وهو يتابع قائلاً: «واحزمي امتعتك لأن بينز سيأخذك إلى منزلك.»

وهتفت هي: «كين...»

فقاطعها بهزة عنيفة من رأسه وهو يقول: «الآن، وإلا فلن اكون مسؤولاً عما سأفعل.»

فقالت تينا: «لا يمكنك أن تفعل ذلك بي، يا كين.» كان في صوتها الآن شيء غريب بعث القشعريرة في جسد جاني. كان أشبه ما يكون بتهكم منغم مما جعلها تدرك، لأول مرة، مبلغ فداحة ما تعني الحياة مع مثل هذه المرأة بالنسبة إلى أخيه. فلا عجب إذا كانت حياته تلك قد قتلته. وتابعت تينا

تقول: «إنني جزء من اسرتك شئت ذلك أم أبيت، فلا يمكنك أن تعاملني بالطريقة التي تعامل بها الآخرين.»

فقال وهو يمسكها من ذراعها: «تعالي معي يا تينا.» وجرها مجتازاً بها الغرفة، بوجه جامد، وشعرت جاني بالراحة لذهابها بهدوء، رغم أن آخر نظرة القتها تينا عليها كانت تطفح حقداً شرساً، هذا إلى شيء آخر... شيء هو نوع غريب من الإنحراف العقلي.

ومضى وقت طويل قبل أن يعود كين، وكان واحد او اثنان من الضيوف قد رحلا. وحال انشغاله بضيوفه وتوديعهم، من أن تكلمه على انفراد.

ولم يتكلم هو إلا بعد أن ودع، ووالداه، آخر الضيوف عند الباب الخارجي، فقال: «لقد رحلت تينا، يا أمي.» وكان ذلك وهم راجعون بعد ان اغلقوا الباب الخارجي.

وحدقت أمه فيه بذهول وهي تهتف: «رحلت؟ هذه الليلة؟ مع من؟ وأين الطفلان؟»

فاجاب بهدوء: «إنهما نائمان في غرفتهما. لقد حضر والد تينا لأخذها. أظنهم يريدون أن يقوموا برحلة بحرية حول العالم، واقترح هو أنها ربما كانت فكرة حسنة أن تذهب هي معهم لعدة أشهر. إن أباها يشعر أنها بحاجة إلى فرصة للاستجمام بدون الطفلين، وهو يدرك أنهما سيكونان سعيدين آمنين معك. إنه سيتصل بنا هاتفياً غداً ليتحدث عن التفاصيل.»

ونظرت أمه إليه وهي تقول: «يا لها من مفاجأة. ولكنني لم أفهم تينا قط. فهي لم تكن أماً حنونة. أتظن أن السنة الأخيرة قد أثرت عليها أكثر مما صرحت به؟» ووجهت هذا

www.liilas.com/vb3

السؤال إلى زوجها وقد ساد وجهها شعور بالذنب.

فأجاب زوجها بجفاء: «لا أظن ذلك. ولكن تينا لا تصارح أحداً بشيء، أليس كذلك؟ أظن مثل هذه الرحلة يحتاجها كل انسان. فهي تمنحنا فرصة للتفكير وتحليل الأمور.» ونطق بجملته الأخيرة بعد نظرة طويلة إلى وجه ابنه العابس.

وعندما ابتعد وزوجته، عاد فنظر من فوق كتفه إلى ابنه وفي عينيه نظرة متسائلة، ولكن هذا وضع اصبعه على فمه يطلب منه الصمت وهو يقول: «سأراك غداً يا أبي.» وكانت الكلمات تبدو عادية، ولكن الأب أومأ برأسه ببطء. لقد تلقى الرسالة غير المعبرة التي وجهها إليه ابنه، وفهمها.

وعندما اختفى والداه متجهين إلى غرفتهما، توجه كين نحو جاني وهو يقول وقد تغيرت ملامح وجهه: «جاني؟ إنني بحاجة إلى الحديث معك. لأن أكون مع إنسان طبيعي. هل تمانعين؟»

فأجابت: «كلا بالطبع.» لقد مس قلبها الألم السافر البادي في عينيه.

وأمسك بذراعها متجهاً بها نحو مكتبه، حيث كانت النار تتوهج حمراء في ظلمة المكتب.

وقال: «لا يمكنك أن تتصوري مقدار اعجابي بك يا جاني.» واهتزت مشاعرها تجاوباً مع العاطفة المتدفقة في صوته. وأدركت أنها قد ضاعت. ضاعت في دوامة محت من ذهنها كل ما هو عقلاني، ولم يبق سوى كين.

وفجأة، تراجع وهو يقول وقد تألقت عيناه بوهج نيران المدفأة: «إنني أريدك يا جاني... هل تفهمين؟»

وأدركت هي، في لحظة واحدة، أنه يمنحها الفرصة

للإختيار. لقد كان رجلاً ذا خبرة، ومتمكناً من فهم مشاعر المرأة ومقدار تجاوبها. لماذا؟ لماذا؟ وفجأة وبدون سبب، شعرت بذعر هائل.

وتهالكت جالسة على الأريكة وهي تقول: «كين... هذا الكلام ليس الآن وقته.»

وتصلب جسده لحظة طويلة سادها التوتر، ليسير بعد ذلك، فيقف أمام النار التي ابتدأت في الخمود، مولياً إياها ظهره. وتنفست بعمق وهي تقول: «إنني آسفة... فأنا لم أعد أدرك طبيعة مشاعري. وما الذي أريده حقاً.» وسكتت وهي تطلق آهة خافتة.

فأجاب وهو يستدير إليها ببطء: «لكنني أعلم تماماً ما أريد.» ولم تستطع أن ترى وجهه في الظلام وإنما بدا مخيفاً ضخم الحجم وهو يتابع قائلاً: «اكثر من أي وقت آخر في حياتي.»

ومرت فترة طويلة من الصمت العميق أخذت بعدها تفرك عينيها بعد أن شعرت برغبة قاهرة في البكاء وهمست مرة أخرى: «إنني آسفة.» وكان صوتها يرتجف رغم كل جهودها في السيطرة عليه وهي تتابع قائلة: «لم يكن في نيتي قط أن أدع الأمور تفلت من أيدينا بهذا الشكل.»

فقال بصوت خافت رقيق: «ولا أنا. ولكن عندما اكون بقربك، تجري الأمور بهذا الشكل. أليس كذلك؟»

كانت السخرية في صوته يشوبها شيء من الألم. وأدركت هي، بشيء من الإشمئزاز لشعورها ذاك، أنها كانت تريده أن يشعر بنفس ما تشعر هي به، في هذه اللحظة، كانت تريده أن يبطل كل اعتراض ومقاومة منها، وأن يؤكد

www.lilas.com/vb3

صلتهما بالطريقة المعروفة منذ الأزل. وتوهجت وجنتاها من جراء هذه المشاعر المتناقضة التي كانت تتفاعل في نفسها والتي اشعرتها بالمذلة.

وسألته بصوت خافت: هل ستأخذني إلى بيتي؟»

فأجاب على الفور بصوت دافيء ثابت: «نعم، إنما إذا وعدتني بتناول العشاء معي مساء الغد.»

فسألته وقلبها يخفق بعنف: «ألا يمكن تأجيل ذلك إلى مساء الثلاثاء؟ إن عليّ أن أنظف شقتي وأغسل شعري وما أشبه ذلك.»

فأجاب: «فليكن ذلك.» وأرسلت الرجولة المتدفقة من صوته العميق، الرعدة في أوصالها.

وكان السائق قد سبق ووضع حقائبها في صندوق السيارة والتي كانت تنتظر بصبر، أمام المنزل في ضوء البدر المكتمل الذي أحال لونها فضياً خالصاً.

وصعد كين إلى مقعد القيادة بعد أن أجلسها في المقعد إلى جانبه. وتمتم ساخراً وهو يشعل المحرك: «إنها ليست مغرية كسيارة الجاكوار، ولكن لا بأس بها لهذه الليلة.»

كانت تريد أن تأخذ الأمور بنفس البساطة التي يأخذها هو بها، كما يبدو. ولكن، كان في حلقها غصة خانقة كانت تمنعها من ذلك. لو لم يكن قد توقف، لكان الآن شعورها مختلفاً. وأغمضت عينيها بشدة، لحظة. سواء كان ذلك للأفضل أم للأسوأ، فهو فوق إدراكها الآن. فإن قربه منها يمنعها من التفكير بشكل سليم.

وانسابت السيارة الكبيرة في ضوء القمر الرائع، وقد بدت الشوارع خالية، تقريباً في هذا الوقت من الليل. وعندما

تذكرت مجيئها إلى هنا منذ أربعة أيام، لم تكد تصدق السرعة التي استولى هو بها على عواطفها وأفكارها كلياً. وكيف بدّد كل معارضة وممانعة منها. هذا بينما هي مازالت بعيدة حتى عن فهم السبب الذي جعله ينجذب إليها، وحتى عن إدراك حقيقته كإنسان. هل تراها وثقت بعقلها أم بقلبها حين تعلقت به. ولم تجد في تلك الشوارع الخالية جواباً يشفي غليلها.

«ها قد وصلنا.» قال ذلك وهو يوقف السيارة خارج المنزل. وحدقت به لحظة في ذلك الضوء الباهت مستوعبة ملامحه الخشنة، وكل خط في وجهه وكأنها لن تراه مرة أخرى. لقد قلب هذا الرجل حياتها رأساً على عقب في خلال أيام قليلة، ولكن أشد الأمور فظاعة هو أنها لم تكن تستطيع أن تتصور أنها قد لا تراه مرة أخرى أبداً.

وقال وهو يمد يده يلمس السلسلة المتدلية حول عنقها: «إنني مسرور لكونك تتحلين بها هذه الليلة. يبدو أن قوتها على تغيير الأمور لم تتغير.»

فقالت: «لم أفهم.» وحدقت به لحظة قبل أن تومىء برأسها قائلة بسرعة: «آه، أتعني تينا؟»

فأجاب بجفاء: «ليس تماماً.»

وفجأة، شعرت أنه من الأفضل أن تتذكر اهتمامها على زوجة أخيه، فسألته: «هل هي سترحل بعيداً؟ وهل ستترك طفليها؟»

فتنهد بخشونة وهو ينظر إلى خارج النافذة قائلاً: «نعم. لقد كان أبوها أكثر تفهماً مما كنت أرجو. ويبدو أنه يحبها رغم عيوبها ولكن دون أن يأخذ عنها فكرة حسنة. لقد كان

www.lilas.com/vb3

يحب كايث، وقد أوضح ذلك. وأظن أنه كان لديه فكرة صائبة عن كيفية تسيير الأمور. فقد خطط لرحلة تستغرق عاماً أو اكثر. وأثناء ذلك سنقوم نحن بالإجراءات القانونية في الوقت المناسب بالنسبة للطفلين. ذلك أن تينا لم يكن لديها قط وقت لأجل طفليها. فهي بالكاد تستطيع احتمالهما بجانبها أحياناً. وأمي هي الأم المناسبة لهما.»

فسألته بحيرة: «وهل ستوافق تينا على هذا؟ إنهما ولديها.»

فأجاب بصوت خشن يملؤه الألم: «عندما تلد سمكة القرش أولادها، تكون هذه الأولاد في أكياس خاصة بها ومعلقة بحبل في داخلها، تماماً كالإنسان، ولكن ما أن تصبح في الخارج، حتى تنطلق في مياه البحر لتعيش بمفردها. أعني بمفردها تماماً وليس للأم أية علاقة بها بعد ذلك. وفي أحيان نادرة الحدوث تولد سمكة قرش بشكل امرأة، مثل تينا تلك.» ونظر إليها متنهداً وهو يتابع قوله: «لا شيء في هذه المرأة طبيعياً، على كل حال، يا جاني. لقد أهملت طفليها، تجاهلتهما منذ ولادتهما. وقد جعل هذا كايث يشعر بالجنون إلى أن اضطر لقبوله، أخيراً ككل شيء آخر. وهكذا أصبح لهما بمثابة الأب والأم. وطبعاً كانت أمي تساعده في ذلك.»

فسألته: «وكيف مات، يا كين؟» وما كان لها أن تفكر، قبل الآن، في إلقاء هذا السؤال، ولكن الوقت الآن قد اختلف.

فأجابها باختصار: «بحادث سيارة. لقد كانت ظروف الحادث غريبة. فقد اصطدم بجدار من القرميد رأساً دون أي دليل على انحراف في العجلة أو ما أشبه. ولكن الوقت كان

منتصف الليل والشارع خالياً ولا شهود هناك.» وهز كتفيه وهو يتابع: «وكان الأفضل أن نجعل أمي تعتقد أن الأمر كان مجرد حادث سيارة.»

فسألته بفزع: «أتعني أن الأمر كان انتحاراً؟»

فأومأ برأسه ببطء وهو يقول: «لقد أحالته تينا إلى رجل من النوع الذي كان يكرهه، يا جاني. لقد اضطرته إلى القيام بأمور، وقول أشياء لم تكن من طبيعته، فآلمت روحه وأثقلت ضميره، و ذلك لكي يرضيها، ولكنها لم تكن لترضى عنه وكان هو ضعيفاً، وكان يدرك في نفسه ذلك، وفي النهاية، دفع الثمن.» والتفت إليها فجأة يسألها: «هل أنت متأكدة أن بإمكانك التوقف عن رؤيتي ليومين كاملين؟» وقبلت هي تغيير موضوع الحديث دون تعليق. فقد كان الحديث عن أبيها، ولو بعد زمن طويل، كان أحياناً يسبب لها غاية الألم، وخاصة في الأيام الأولى التي تلت فقده، عندما كان شعورها بالمرارة يدفعها، فعلاً، إلى الغيثان. فلا عجب إذا كان يكره تينا والحديث عنها إلى هذا الحد.

وأجابته بصوت خافت وهي تفتح باب السيارة لتخرج إلى الليل القارس: «سأحاول.» كانت تخشى ان هي بقيت دقيقة أخرى، أن تطلب منه إعادتها معه إلى بيته.

وتمتم وهو يتبعها إلى الباب الخارجي: «يا لك من فتاة حمقاء... افتحي الباب.»

وعندما تبعها إلى الدرهة الصغيرة، قالت له: «لا حاجة بك إلى الدخول.»

فأجاب: «لقد غبت عن البيت أربعة أيام، وكان المنزل خالياً. فأنا سأطمئن عليك أولاً، ثم أخرج، إلا إذا طلبت مني

www.lilas.com/vb3

البقاء لشرب فنجان قهوة.» وبان المكر في عينيه وهو يقول ذلك.

وعندما خرج أخيراً، كانت تشعر بأعصابها متوترة وذهنها مشوشاً إلى درجة لم تعرفها في حياتها. وكان شعورها بالإرتياح وهي تسمع صوت خطواته تبتعد وهو يغادر الشقة لا يوازيه سوى شعورها بالأسف لرحيله.

وكانت شقتها كصندوق الثلج. وعندما استلقت في فراشها، وهي ترتجف من البرد، افتقدت وجود الهرين، كوزموس وجونيبر، بجسميهما الدافئين، اكثر مما كانت تظن.

الفصل التاسع

وأثبت العمل في اليوم التالي أنه كارثة في أعلى المستويات، فقد أخذت جاني ترتكب الأخطاء في العمل مرة بعد مرة. وفي آخر النهار أدركت أن ظن جو أنها مازالت تعاني من الأنفلونزا، هو وحده الذي منعه من الخروج عليها بنيران البنادق.

وعندما وضعت عليها معطفها، في تلك الليلة، قال لها جو بهدوء وهو ينظر إلى آخر تقرير مليء بالأخطاء قدمته إليه: «يمكنك أن تأخذي عطلة يومين، يا جاني، فأنت لم تعودي إلى طبيعتك بعد.»

وأومأت هي بالإيجاب صامتة، وهي تتناول حقيبتها من على الأرض، مفكرة في أنها لن تعود أبداً إلى طبيعتها مرة أخرى. حتى أنها لم تعد تعرف ما هي طبيعتها أصلاً.

وأجابته باختصار: «شكراً يا جو.» وحيته بيدها باختصار وهي تخرج، قائلة: «إنني آسفة لما أحدثته من فوضى وأخطاء في العمل، هذا النهار.»

وعندما أصبحت في بيتها، أشعلت مدفأة الغاز الصغيرة في غرفة جلوسها الصغيرة الحجم، وصنعت لنفسها فنجاناً من الشاي وخبزاً محمصاً، ثم جلست تأكل وهي تدفىء قدميها أمام المدفأة، بعدما غسلت شعرها، ونظفت شقتها الصغيرة كلياً. ولكن قدرتها المهتزة، وارتجاف يديها، والغثيان الذي تشعر به، كل ذلك بقي

www.liilas.com/vb3

كما كان، لم يتغير، وهي لن ترى كين قبل الغد.

وبعد أن جلست تقلب في محطات التلفزيون بضيق، حدثت نفسها بأن عليها أن تجد شيئاً تشغل به نفسها، وخطر ببالها أوراق أبيها. وتشبثت بهذه الفكرة. إن اصرار كين بأن يعيد إليها مستحقات أبيها من المال، جعلها تفكر في ضرورة إعادة فحصها للناحية المالية في مسألة أبيها. بعد إذ شعرت بعدم الارتياح لفكرة قبول أي شيء منه. وعلى ضوء تطور الأمور بينهما، بدا لها أن عطاء منه لها قد يبدو تكرماً منه عليها ما لم تكن لتقبله بأية حال.

هل تراها تشعر بقوة كافية لاخراج ذلك الصندوق الذي يحوي اوراق أبيها بكل ما تحفل به من ذكريات مؤلمة لأحزان أبيها وكربه، ويأسها هي؟ وجلست على السجادة أمام التلفزيون وهي تفكر في كل ذلك. والغريب أنها أجابت نفسها أنها تستطيع ذلك. ولأول مرة، منذ سنتين، تشعر بنوع من السكينة يستقر في أعماقها ليغطي الألم والأسى بتقبل بطيء لما ليس في إمكانها تغييره. عليها أن تنتهي من هذا كله، أن تخرج من هذه القضية، أن تثق بما يوحي به إليها قلبها. لقد اتجهت بها المرارة التي بقيت تعاني منها شهوراً طويلة نحو رجل فظ، دكتاتور متسلط قادر على التصرف بقسوة بالغة، ولكن، الآن... لقد عرفت حقيقة كين، وأحبته.

كم استمر بها الوقت، في جلوسها ذاك في غرفة جلوسها الصغيرة تستوعب المعلومات التي أخذت تحاربها طيلة أيام، هذا لم تدركه، ولكنها، عندما وقفت في النهاية وأحضرت صندوق الأوراق، كان ارتياحها قد أصبح حقيقة

www.liilas.com/vb3

واقعة. إنها لا تعرف ماذا يخبىء لها المستقبل، فهو لم يذكر لها بعد، كلمة واحدة عن الحب، كما أن عالمه هو غير عالمها، ولكنها، رغم هذا كله، تريد أن تبقى معه بقدر ما يريدها هو أن تبقى. إن الألم الصارخ الذي شعر به لموت أخيه، عطفه وتفهمه لقضية كولينز، صديقه الحميم ولأبيه معاً، اهتمامه بأمه، حبه لأولاد أخيه... كل هذا يخبرها أنه ليس بالرجل الذي يسلب بكل قسوة، رجلاً متوسط السن، العمل الذي يعيش منه، ثم يبتعد دون أن ينظر إلى الخلف. إنها تعتقد هذا. إن عليها أن تصدقه.

وأخذت تعود بأفكارها إلى الأيام القليلة الأخيرة وهي تدفع بشعرها إلى الخلف. إن الرقة والحنان اللذين لمستهما منه، كانا كل ما تطلبه في الرجل. كانت قوته لا تنحصر في الفظاظة والبرود كما يتوهم اكثر الرجال أنها القوة، ولكنها من النوع الذي يمكنها من اجتياز أي وضع، وأية ظروف معه عالمة بأن في إمكانه أن يحميها ولو على حساب سلامته. كما أنها لم تعد تشك في نزاهته بعد الآن، ولن تشك أبداً.

وتنفست بعمق في تلك الغرفة الساكنة. كان يريد قلبها وروحها وكل كيانها. ولقد عرفت هي هذا. ولكن، أين ستصبح عندما ينتهي هذا كله؟ هذا إذا انتهى؟ وكيف ستواجه هي عواقب هذا بقية حياتها؟

وعادت إلى ذهنها كلمات سبق وقالها لها، وكأنه معها الآن في هذه الغرفة: «سيكون عليك، عاجلاً أم آجلاً، أن تتمسكي ببعض الفرص التي تسنح لك في حياتك، فلماذا لا تبدأين الآن، معي؟»

نعم، لِمَ لا، يا كين؟ حدثته بذلك بصمت وهي تنظر حولها في الغرفة الخالية. إنها لن تخاف المجهول بعد الآن، بل ستواجهه معه، برأس مرفوع. وربما... وهزت رأسها ببطء... ربما سينمو شعوره نحوها إلى أن يصبح حباً حقيقياً.

وبعد أن نفضت عن الأوراق عنكبوتاً ضخمة ميتة، وكثيراً من غزل العنكبوت، افرغت الأوراق كلها على السجادة، ومن ثم ابتدأت تنظمها حسب تواريخها. وكانت كومة الأوراق تثبط الهمة، ولكن كان عندها المساء كله. ثم جلست وابتدأت تقرأ الأوراق بالتتابع، وهي تكتب ملاحظة عن كل ما تقرأه.

كان أبوها يكافح حقاً. لقد اغرقت بعض الأوراق بدموعها عندما وصلت في قراءتها إلى النصف. إنه لم يتسول، ولم يهدد بل كان دمثاً مؤدباً على الدوام. ولكن الذئب أبرز انيابه ليغرزها في ما يملك.

وبعد عدة اكواب من القهوة السوداء، كان مايزال أمامها عدة أوراق. ونظرت إلى ورقة الملاحظات، وتنهدت. كان التعويض المالي الذي قدمه كين إليها، معتبراً، فهل كان يعلم؟ وهزت رأسها ببطء. إن باستطاعته دفعه طبعاً، ولكنها لم تشأ أن تأخذ نقوده. لقد بدا لها في هذا الرأي شيئاً من الإنصاف رغم أنه كان بعيداً عن المنطق.

وألقت نظرة على ساعتها لتجد أنها الواحدة صباحاً. فصممت على المرور بسرعة على الأوراق القليلة الباقية قبل أن تذهب إلى فراشها. شعرت أن بإمكانها الآن ان تنام. ولكن الورقة قبل الأخيرة هي التي جعلت رأسها يدور في الظلام. وهي ورقة لم تكن قد لاحظتها من قبل. وتصفحتها

في البداية، بسرعة، ثم عادت تقرأها ببطء وإمعان وقلبها يخفق بعنف. وشعرت بأنها على شفا الموت، ثم للمرة الثالثة حتى انطبعت الكلمات في ذهنها بأحرف من نار. كانت الأحرف المطبوعة بها من الأحرف المائلة الأنيقة الرائعة الجمال والتي توحي بالقوة والثراء.

عزيزي السيد غوردون.

من المؤلم، على الدوام، أن نضع وقتاً محدداً لمعاملة حساسة كمعاملتنا. ولكنني أشعر بأن مؤسسة ستيل لم تعد تقبل أي تأخير. إن تأجيلك هذا قد افقدك حتى الآن، مبلغاً مالياً معتبراً وأنا أشعر بأن المبلغ الذي نقدمه إليك هو بالغ السخاء بالنسبة إلى الظروف اليائسة التي تجد نفسك فيها حالياً. فإذا أنت لم تقبل شروطنا وعرضنا هذا لاستلام مصنعك، في خلال ثماني وأربعين ساعة، فإن مؤسسة ستيل ستنسحب من الموضوع، وإن معلوماتنا عن صعوبة وضعك المالي تجعلنا نعتقد أن وضعك سيصبح في خطر. ولا شك أن الملاحقات أمام القضاء هي تجربة فيها إذلال لإسم الأسرة على الدوام. وأريدك أن تضع هذا في اعتبارك عندما تصمم على قرار.

وتلا ذلك، النتيجة العادية لمثل هذه الرسالة القانونية، ولكن التوقيع الذي كان في أسفل الرسالة هو الذي أحدث في قلبها كل هذا الألم. (ك. ستيل) وتحته (رئيس ومدير إداري).

هكذا إذن. ورفعت رأسها تنظر إلى الجدار المقابل بعينين لا تريان. إنه كان يعلم. كان يعلم! حتى ولو لم يكن مشاركاً في ذلك الضغط المريع الذي أنزل الثمن إلى ثلث

www.liilas.com/vb3

المبلغ المعروض في الأصل، وذلك في مدى الأشهر التي مرت، وكان أبوها في اثنائها صامداً أمام الضغوط. ثم رشوا أو أرغموا البنوك والمؤسسات الأخرى لكي يسحبوا البساط من تحت قدميه المرتجفتين. حتى ولو لم يكن كين قد حرض على ذلك، فإن هذه الرسالة تثبت أنه، في النهاية، قد وافق على تصرف موظفيه. وهو ما كان ليضع توقيعه أسفل رسالة كهذه دون أن يكون على علم بكل تفاصيل القضية. فليس هو، ليس كين ستيل من يفعل ذلك.

ولم تبكِ جاني. فقد جهزت نفسها للنوم بحركة آلية، ثم استلقت في سريرها وعيناها مفتوحتان حتى انتشر ضوء الفجر في غرفتها ليبدأ يوم جديد. وشعرت بجسمها مشلولاً... لقد مات شيء في أعماقها... انتهى... إنها لا شيء الآن. كيف أمكنها أن تكون بمثل هذا الغباء؟ كيف؟

ولم تستطع أن تذهب إلى العمل. لم تستطع أن تقوم بأي عمل مطلقاً... ومر اليوم ساعة بعد ساعة ودقيقة بعد دقيقة. وأغمضت عينيها بشدة إذ، لثانية واحدة، اندفع الألم الحارق يبرد الثلج الذي غمر قلبها. عليها ألا تفكر بشيء الآن أبداً. وحملقت في الظلام الذي ابتدأ يتسلل إلى غرفتها ببطء. إنه سيكون هنا بعد ساعة، وبعد ذلك... وانتابتها قشعريرة باردة.

وعندما قرع الباب، مشت تفتحه ببطء كامرأة عجوز. وما أن وقعت عيناه على وجهها الشاحب، حتى تلاشت الابتسامة العريضة عن وجهه. وسألها، بعد أن ألقى جانباً باقة الورود التي أحضرها معه، وتبعها إلى الداخل، سألها قائلاً بعجب: «ما هذا؟ ما الذي جرى؟»

www.liilas.com/vb3

فأجابت: «لقد وجدت رسالة.» وبدا صوتها الذي خرج من خلال الغصة التي كانت أن تخنقها، بدا طبيعياً تقريباً، ووجدت هي ذلك غريباً بعد أن شعرت، في اللحظة التي وقعت عيناها عليه، بهزة عنيفة. وقد شعرت للحظة واحدة، بما يشبه الإغماء. إنما الآن، ولأول مرة منذ وجدت الرسالة، أخذ الغضب الوحشي يضطرم في أعماقها مانحاً لأعضائها قوة مفاجئة جعلها لا تستطيع أن تنظر إليه دون أن تنهار.

وسألها بوجه جامد: «رسالة؟ ما نوع هذه الرسالة يا جاني؟»

وعندما تقدم منها، تراجعت إلى الخلف بحدة وهي تقول بعنف: «هل لك أن تقرأ الرسالة؟ أظن أن من الأفضل أن تفعل ذلك.»

ووقف دون حراك وهي تسير نحو الصندوق الموضوع في زاوية الغرفة لتخرج منه رسالة تقدمها إليه قائلة: «ها هي.»

وأخذها منها، حذراً من أن يمس يدها، ثم ألقى نظرة شاملة على الصفحة، وسرعان ما توترت ملامحه.

وقالت بصوت حاد مرتفع: «حسناً؟» وتنفست بعمق ثم عادت تقول: «أهذا هو توقيعك؟»

فأجاب: «يمكنني أن أشرح لك هذا الأمر، يا جاني.» ونظر إليها، فرأت في عينيه تعاسة إنعكست فجأة في عينيها.

واندفعت تقول بثورة مفاجئة شعرت معها بالرغبة في إلقاء نفسها عليه وتمزيق وجهه بأظفارها: «كيف تكذب

عليّ بهذا الشكل، يا كين؟ كيف أمكنك أن تدعي البراءة بينما طوال الوقت...»

فقاطعها وهو يتقدم نحوها خطوة أخرى: «لقد كنت...» ولكنها تراجعت مبتعدة عنه وقد التهبت وجنتاها وتابع هو قائلاً: «استمعي إليّ من فضلك.»

فانفجرت قائلة: «لا تلمسني يا كين. سأقتلك إذا أنت لمستني.»

فقال: «استمعي إليّ يا جاني.»

فصرخت قائلة: «لا أريد أن استمع اليك بعد الآن.» كان غضبها عنيفاً جعلها ترى أمامها كمثل ضباب أحمر وهي تتابع صراخها: «لا أريد أن اسمع أكاذيب أخرى. هل تسمعني؟»

فأجاب بغضب وقد أحمرت وجنتاه: «أظن البناية كلها تسمعك. إنني أقدر مشاعرك نحو كل هذا، ولكن هنالك سبباً وجيهاً لهذا، إذا استمعت إليّ وقتاً كافياً...»

فقاطعته: «إنني أكرهك. إنني أكرهك!» وعندما هاجمته استعمل كل قوته ليمسك بها على مدى ذراعيه بينما كانت هي تقاتله وترفسه بذراعيها وساقيها، وقد منحها الغضب المر الذي اكتسح جسدها قوة بشرية مضاعفة. وبعد دقائق طويلة، إنهارت على السجادة.

ووقف ينظر إليها وقد أظلمت عيناه واكتسح وجهه العبوس وهو يقول: «هل ستستمعين إليّ الآن؟ امنحيني فرصة أوضح لك فيها الأمر.»

فقالت ببطء: «لقد سبق واستمعت إليك بما فيه الكفاية. ولا عجب أن تعرض عليّ مالاً... لقد فهمت الآن كل شيء.

وعندما أفكر كيف ساورني شعور بالذنب بالنسبة لقبول أي شيء منك... حسناً، إنني لا أريد نقوداً منك، يا كين ستيل. لا أريد منك أي شيء.»

وارتفع صوتها بالصراخ مرة أخرى. وهز هو رأسه ببطء وقد اكمد وجهه، ثم قال بهدوء: «لا يمكنني أن أتحدث إليك وأنت بهذه الحال، والآن اهدإي.»

فانفجرت قائلة: «أهدأ؟» لقد كان في هذه الكلمة وقوداً جديداً للنار التي في جوفها، وتابعت صراخها: «كيف تجرؤ على أن تقول هذا؟ إنك كاذب مخادع وقد فهمت السبب في اهتزاز عقل تينا ما دام لها صلة بأسرتك منذ وقت طويل.» كان هذا كلاماً خطراً وكانت هي تعرف ذلك، ما جعلها تندم على التفوه بتلك الكلمات القاسية المغيظة حالما نطقت بها، ولكنها حدقت فيه بتمرد، لا تريد أن تظهر أي ضعف.

فقال ببرود وقد استحالت عيناه إلى قطعتين من الفولاذ وهو يسير متجهاً نحو الباب: «إن ما تقولينه لا يفيد أياً منا. وسأعود عندما تتمكنين من السيطرة على اعصابك.»

فقالت: «لا تكلف نفسك عناء ذلك.» وتوقف هو وقد تصلب جسمه وهي تقذفه بهذه الكلمات، ثم عاد يتابع سيره نحو الباب الأمامي.

وقبل أن يغلق الباب وراءه، قال لها بصوت بارد كالثلج: «ربما لن أفعل ذلك.»

هل تراه ذهب؟ ورفعت رأسها ثم زحفت نحو الكرسي المريح أمام المدفأة ورأسها يدور. هل ذهب حقاً؟ حسناً، إنها مسرورة لذلك. مسرورة! فهي لا تريد أن تراه مرة أخرى في حياتها.

www.liilas.com/vb3

وفوجئت بانهمار دموعها بغزارة. وعندما ابتدأت بالبكاء، وجدت أن من الصعب عليها التوقف. وفي كل مرة كانت تظن فيها أنها تمكنت من السيطرة على نفسها، كانت الدموع تنهمر من عينيها من جديد. وفي النهاية، تكورت في سريرها مصطحبة معها فنجاناً من الكاكاو وقربة ماء ساخن، حيث استلقت في الظلام وقد تملكها الإرهاق.

لم تكن تتوقع أن تنام. ولكن الليلة السابقة التي لم يغمض لها فيها جفن، والإنفعالات الحادة وثورة المشاعر التي انتابتها في الأربع وعشرين ساعة الماضية، كل ذلك جعلها ترتمي في سبات عميق لتفتح عينيها وقد غمرت الغرفة أشعة الشمس التي كانت تتسلل من بين الستائر. وبقيت مستلقية لحظة، غافية في دفء الأغطية، متسائلة عن ذلك الظل الأسود الذي غشى ذهنها، ثم تذكرت كل شيء.

وعكست لها مرآة الحمام وجهاً شاحباً ملطخاً، وعينين منتفختين جعلتاها تشعر وكأنها تنظر إلى العالم من خلال شقين. وبعد «دوش» دافيء طويل، شعرت بالتحسن قليلاً. ولكن، لوقت قصير، إذ أنها، وهي تعد فطورها، ابتدأت دموعها تتدفق من جديد.

وقالت بصوت عالٍ تحدث نفسها في تلك الغرفة الخالية، تمالكي نفسك، يا جاني، لا يمكنك أن تستمري على هذا الشكل... إن منظرك غاية في الفوضى... وكان هذا النهار أسوأ من النهار السابق. فقد كانت، نهار أمس، على الأقل، في انتظار وصوله ولكنها الآن تجد دموعها تعاود التدفق كل عدة دقائق دون أن تستطيع السيطرة عليها وهذا ما

أفزعها. إنها لم تشعر بمثل هذا قط في حياتها. حتى عند وفاة والدها، حين ظنت، في ذلك الحين، أنها قد وصلت إلى حافة القبر.

وفكرت، فيما بعد، وهي تخرج للتمشي في ذلك الجو القارس، في أنها تكرهه، تمقته. وكانت تتفرج، دون هدف، على واجهات الحوانيت وعلى الناس التي تسرع الخطى في الشوارع كعادة سكان لندن، دون أن ينتبهوا إلى أن ثمة انساناً في غاية الألم يسير بينهم. فلماذا، إذا كانت تشعر بذلك قد أحبته إلى هذا الحد؟ وجعلها هذا الخاطر تتسمّر في وسط الشارع، كلا، ليس هذا صحيحاً... ليس هذا صحيحاً. ولكنها كانت تعرف جيداً أن هذا صحيح. فهي قد احبته دون أمل، وتغيير مشاعرها هو شيء ليس بيدها.

واتجهت في سيرها نحو إحدى حدائق لندن الصغيرة المحاطة «بالدرابزين» حيث جلست على المقعد الخشبي المبلل وهي تنظر إلى بساط العشب الأخضر بعينين لا تريان. إنها لم تستمع إليه. لم تسمح له حتى بإبداء عذرٍ ما... هل من الممكن أن يكون ثمة تفسير لكل هذا؟ وهزت رأسها ببطء. ثمة شيء واحد، وهو أنها لا تستطيع أن تعيش آملة بشيء آخر. ربما قد سبق وندم بمرارة على ما فعل. ربما قد دفن ذلك العمل الشائن بحيث لم يعد بمقدوره إخراجه إلى العلن... ومضى وقت طويل وهي على هذه الحال، زجرت نفسها بعد ذلك بغضب، لهذا العبث. لقد كان يعلم ما يفعل. ولكنها لم تستمع إليه. وإذا هو عاد، فهي ستستمع إليه، ولو لتتخلص من الأوهام. ولكنها خسرته، ومهما كان السبب، فقد خسرته... وأدركت فجأة، أنها،

www.liilas.com/vb3

بخسارتها كين، قد ذهب كل ما كانت تتوقعه من المستقبل. الزواج، الأطفال، أسرة خاصة بها يشاركها فيها رجل تحبه. ولكنه هدم كل ذلك منذ أول يوم تقابلا فيه، ذلك لأن الزواج لم يكن أبداً من مقرراته حتى ولو لم تقع هذه القنبلة. وبعد أن عرفته هي، لم يعد بإمكان رجل سواه أن يحتل مكانته عندها.

كانت قد فرغت لتوّها، من إلقاء وجبة الطعام في القمامة، والتي طبختها دون أن تمسها. عندما سمعت قرعاً على بابها، فعلمت أنه هو.

وفتحت الباب ببطء ورفعت أنظارها لتراه واقفاً أمامها ينظر إليها بهدوء: «هل أستطيع الدخول؟» فوقفت جانباً دون أن تتكلم، ثم عادت تدخل شقتها وهي تسمعه يغلق الباب خلفه وهو يتبعها إلى داخل غرفة الجلوس الصغيرة، وسألها بلطف وهي تجلس على الكرسي وعيناها مسمّرتان على وجهه، سألها قائلاً: «إذا أنا ابتدأت بالكلام، بالشرح، فهل تعدينني بعدم التفوه بكلمة حتى أنتهي؟»

فأجابت وهي تشير بيدها إلى كرسي آخر: «لا بأس.» ولكنه هز رأسه ببطء بينما الخيوط الفضية في صدغيه تلمعان في نور المصباح، مسببة لها ألماً عنيفاً في صدرها. يجب أن لا تبكي الآن. يجب أن لا تبكي. وحدثت نفسها، ثائرة، بأن عليها أن تسيطر على مشاعرها، إذ ربما ستكون هذه آخر مرة تراه فيها في حياتها، ويجب أن تنتهي بشيء من الكرامة، كان كين متوتراً وهو يذرع أرجاء الغرفة واضعاً يديه في جيبي بنطاله وقد انحنى جسده الكبير وكأنه يعاني ألماً دفيناً، ثم قال: «إن التوقيع (ك. ستيل)

الذي في أسفل الرسالة هو صحيح.» والقى عليها نظرة خاطفة، وقابلت هي نظرته بثبات مع أن كيانها كله كان يصرخ احتجاجاً على ما يقول، وعاد هو يقول: «ولكنه كان كايث ستيل، يا جاني، وليس كين.» ووجدت جاني نفسها غير قادرة على استيعاب ما يقول. فقد كانت تستمع بجهد من خلال النبض الذي يعلو في أذنيها.

وتابع يقول: «منذ سنتين، دخل أخي معنا في الشركة لرعاية أعمالي لمدة سنة تقريباً، وقد سلمته أنا سلطة كاملة في كل النواحي. كنت أعلم أن باستطاعتي الثقة به، فقد كان يحبني بقدر ما كنت أحبه، وكان هو الشخص الوحيد، في ذلك الوقت، الذي كنت أثق فيه والذي كان يعرف كل تفاصيل العمل. وكان في ذلك الحين، يعيش مع تينا حياة قاسية، وربما كان ذلك الوقت أسوأ وقت لعمل كهذا. ولكنه كان ضرورياً وقد أصر هو على ذلك.»

وتوقف عن المسير لينظر إليها مباشرة، وهو يستطرد قائلاً: «وفي الوقت الذي استعدت أنا فيه السلطة مرة أخرى، كانت قضايا أخرى في المقدمة، أما مصنع أبيك فقد كان مجرد إسم في القائمة التي تسلمتها والتي تشير إلى الإنجازات الجديدة. أيمكنك تصديق ذلك؟» فأومأت برأسها وقد أخرسها ما تسمع، وهي تتنفس بارتياح وقد اجتاحتها موجة من البهجة التي شعرت بها بعد هذا الإيضاح.

وتابع هو: «عندما قابلتك في تلك الليلة الأولى، لم أعرف، في البداية، بما أفكر، وعما إذا كنت أنت أداة في يد أحد المنافسين لي عديمي الأخلاق. وذلك لتشويه سمعتي، أم أنك تتصرفين لمصلحتك الخاصة لهدف أسوأ، وحتى

لو كان هناك ذرة من الحقيقة في اتهامك المحيّر ذاك. وقد ثارت ثائرتي وجن جنوني. لقد فكرت في الإنتقام ونويت ذلك. ولكن، منذ اللحظة التي بكيت فيها، عرفت أنك، على الأقل، مؤمنة بعدالة قضيتك، وكان في ذلك، أول بذرة من الشك تنغرس في نفسي. وقد حققت تحرياتي أسوأ مخاوفي. لقد أحببت أخي يا جاني.» كان في صوته شيء من الإرتباك تقريباً. وعندما شرعت بالنهوض لتتقدم نحوه، أشار إليها بيده لكي تبقى جالسة، وقد توترت ملامحه فجأة، وهو يقول: «كلا. إنني لم أنته من حديثي بعد. إنني لم أشأ لك أن تعلمي أن أخي كايث هو الذي دمّر عمل أبيك وحياته... أولاً لأنه أخي الذي أحبه، وثانياً لأنه ما كان ليفعل مثل هذه الأشياء لو لم تدفعه تينا إلى حبٍ أصبحت معه كل حياته موقوفة لمحاولة اثبات نفسه، قاسياً عنيفاً، مليئاً بالحيوية أو ما شئت سميه، وثالثاً لأن...» وسكت فجأة، ثم استدار من أمامها وسار نحو النافذة الضيقة حيث نظر من خلالها إلى الشارع البارد محدقاً في الظلام وقد أولاها ظهره، ثم استطرد قائلاً: «لأنني وقعت في حبك منذ أول ليلة. فكنت أخشى، إذا علمت أنت أن اسرتي مسؤولة عن تدمير أسرتك، فلن يكون أمامنا فرصة، بعد ذلك، أبدا. وعندما اخبرتك أن كايث قد انتحر، كانت نيتي أن أكمل لك القصة وأخبرك أن ذلك كان بسبب أخطاء اقترفها مثل تلك التي مع أبيك. ولكنني لم استطع، شعرت وكأنني أقتل كل ما بقي لي من أخي الأصغر وأخوته. لا يمكنني أن أفسر ذلك، ثم أنه كان ذنبي أنا، جزئياً كذلك.»

فقالت وهي تسير إليه، ثم تنظر في وجهه: «ذنبك؟» ورأت العينين الزرقاوين ممتلئتين بدموع لا تسيل.

وهمست: «كين.» ولكنه أوقفها بسرعة، مبعداً إياها برقة، ولكن بثبات، ثم مشى إلى الطرف الآخر من الغرفة وكأنه يريد أن يترك مسافة بينهما، وهو يقول: «إنني لم أكمل حديثي بعد، يا جاني.» فحدقت به بعينين متسعتين من الخوف. بينما كان هو يتابع كلامه قائلاً: «نعم، لقد كان ذنبي أنا، جزئياً، فأنا أولاً قد قدمتُ كايث إلى تينا. لقد كنت أعلم أنها تزوجته لأنها كانت تعتقد بطريقة مريضة ملتوية، أنها تحبني، ولكن، لم يكن في إمكاني أن أخبره بذلك.» وطفحت عيناه بالألم وهو يستطرد: «إنني فقط، لم أستطع. ظننت أنها ستحبه فيما بعد، بعد أن تعرف أي نوع من الرجال هو. ولو كنت أعلم مبلغ التعاسة التي ستسببها له، لتصرفت بشكل مختلف. ولكن، عند ذاك، كان الأوان قد فات تماماً. إنني لم اخبره لأنني لم استطع أن أفقد حبه، وكان ذلك خطأ مني سيعذبني بقية حياتي.»

فسألته برقة: «ولكن، كيف كان بإمكانك أن تعلم؟ كيف لأي إنسان طبيعي أن يتصور عقلاً كعقل تينا؟ إنها مريضة يا كين. مريضة حقاً.»

فسألها فجأة وقد بان اليأس في عينيه: «جاني، هل أنا مخطىء في تصوراتي؟ أريد أن أعلم الحقيقة. هل ابتدأت تهتمين بأمري؟»

فأجابت برقة: «نعم، إن أمرك يهمني جداً يا كين. اكثر مما...»

فقال: «ثمة شيء آخر يجب أن تعرفيه.» وبدت منه إشارة

www.lilas.com/vb3

وحشية جعلتها تنكمش في مكانها وقد تسارعت دقات قلبها، بينما استطرد هو قائلاً: «إن السبب الذي جعل كايث يستلم مني العمل، كان مساعدتي.» وحدق فيها بألم، وهو يتابع: «إنه لم ينجح في عمله لأنه كان بالغ الطيبة والرقة وهذا ما كانت تينا تعيره به على الدوام. كان يجب عليّ أنا أن أدرك أنه سيحاول ان يبالغ في التعويض عن ذلك، ولكنها كانت مراهنة مني جعلتنا جميعاً خاسرين. والعذر الوحيد لي هو أنني كنت من شدة المرض بحيث ما كان يمكنني أن أقيم الأمور بشكل صحيح.»

«المرض؟» وحدقت فيه بحيرة هل يمرض كين؟ هذا الرجل القوي الكبير الحجم والذي لا يقهر؟ غيره يمكن أن يمرض، أما هو...

وقال بوجه خالٍ من التعبير عدا عينيه اللتين كانتا تعبران عن تلك الحادثة المخيفة: «لقد أصبت في حادث تزلق على الثلج تركني مشلولاً. وكان ثمة عملية يمكنني اجراؤها نسبة نجاحها خمسون في المائة. وفي حالة نجاحها، كان عليّ أن أستمر في العلاج الطبيعي لسنوات وأن اعاني من بعض الألم طيلة حياتي.»

وهتفت: «كين...» وكانت ساقاها ترتجفان بعنف... وتهالكت على الكرسي. وتذكرت هذه الخطوط العميقة في وجهه، وعدم الاتزان في مشيته الذي سبق ولاحظته بين وقت وآخر...

وعاد يقول: «إن ثمة أثراً مريعاً لجرح العملية في ظهري، يا جاني. فإذا كنت تنفرين من منظر كهذا، فهذا هو الوقت الملائم لكي تخبريني.» وكان يقول هذا وعيناه

تحدقان في وجهها الشاحب، ثم تابع: «ولكن، قبل أن تفعلي ذلك، دعيني أخبرك بشيء. تلك الحياة الصاخبة المجنونة التي كنت أعيشها... قد همدت عندما كان عليّ أن أستلقي على سرير المستشفى أياماً وأسابيع دون حراك. وكان عليّ أن أواجه حقيقة أنني حتى ذلك الحين، قد عشت حياتي الخاصة بشكل فوضوي كامل. فقد كنت غنياً وناجحاً أحيل كل شيء ألمسه إلى ذهب، ولكنني، في النهاية، لم أحقق أي شيء يجعل للحياة معنى. اتعرفين هذا الشعور؟ لقد رجعت بأفكاري إلى جميع النساء اللاتي عرفتهن، فلم أجد بينهن واحدة يمكنني أن أنتظر منها قضاء أسبوع واحد معي، ولا أقول الحياة كلها. وأدركت عند ذلك، أنني بحاجة إلى امرأة تكون لي بكل ما في ذلك من معنى، وأنني كنت احتاج مثل تلك المرأة، على الدوام، دون علم مني، إلى أن حدث ذات ليلة، منذ أربعة أسابيع، أن جاءت فتاة سمراء بعينين بنيتين ملتهبتين لتتهمني بقتل أبيها وتصفعني أمام نصف العالم.»

«كين...» ومازالت لاتستطيع الحراك. كان هذا كثيراً. لقد حصلت على السعادة كلها، فكان كثيراً عليها. وتابع هو قائلاً: «ومن السخرية أن الفتاة التي وقعت في حبها تلك الليلة، كانت تكره الأرض التي أمشي عليها. وكانت هناك من العقبات اكثر مما كنت استطيع معالجتها. لم أعرف نوع شعورك الحقيقي نحوي، يا جاني، ولكن إذا كان هنالك أي حظ لي منك، مهما كان ضئيلاً، فاخبريني.» وكانت كلماته الأخيرة أشبه بالأنين، فتحركت الآن لتمسك بيده وكأنها تواسيه.

www.liilas.com/vb3

وأبعدها عنه ببطء ليتمكن من النظر في وجهها، ورأت أنه مازال عنده بعض الشكوك نحوها، وهو يقول: «أريد أن أتزوجك، ولكنني سأكون رجلك الوحيد وليس أحد آخر... هل تفهمينني؟ كما أنه لن يكون بإمكاني أبداً أن أرقص في السهرات مرة أخرى.»

فقالت برقة وقد تألق وجهها بالحب: «يمكنني أن أفكر في أشياء أخرى أفضل من تمضية السهرات في الرقص.»

وصدرت منه آهة رضى وهو ينظر إليها بعينين تطفحان بالمشاعر: «إنني أحبك، يا جاني. لقد أحببتك منذ أول ليلة. وهذا ما كنت أحاول أن أخبرك به عندما أهديتك سلسلة جدتي، إنني أحبك، أحبك. إنك كل ما كنت أتمناه وأكثر.»

فرفعت إليه عينين متألقتين كنجمتين، وهي تبتسم قائلة: «أرني أولاً ماذا تعني بقولك هذا، وبعد ذلك أخبرك عن مدى حبي لك.»

www.liilas.com/vb3

تمــت